www.kotobarabia.com

صعود .. و سقوط

الامبراطورية الأمريكية

عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

صعود .. وسقوط

الإمبراطورية الأمريكية

عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

أمريكا تدمر العالم بقنبلة نظيفة جداً

من اللافت للنظر أن أمريكا التي كانت تعاني قهر وبطش الاستعمار البريطاني لبلادها حتى نالت الاستقلال في يونيو ١٧٧٦م ، ليست هى أمريكا التي تشن الحروب وتستولي على دول ذات حضارة قديمة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م.

ليست هذه أمريكا التي ناهض شعبها جيوش المملكة المتحدة منذ ما يزيد قليلاً على مائتي سنة، لقد أصبحت على مدار أكثر من خمسين عاما تذود عن الكيان الصهيوني الذي زرعته كشوكة في قلب الأمة العربية ، وهى تضع على رأس أجندتها السياسية قضايا تدعي أن وضعها الحضاري يحتم عليها مسؤوليات سياسية ...تاريخية ..أخلاقية.

أخلاق معتلة القلب ..بلا ضمير ..تتخذ من نزاع الشرق الأوسط تكئة في حركتها الأشمل والأوسع مدى للمواجهة الاستراتيجية والحضاراتية مع أعداء يشكلون من وجهة نظرها- تهديدا لوجودها وأمنها القومي، وهى أخلاقية دبلوماسية ..ميكيافيللية ..تكيل بمكيالين، وفي مخاتلة توهم العرب والمسلمين بأنها تحترم تراثهم جداً، وأنها تتحرك لحل مشاكلهم، ونحن نصدق وننسى قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١] .

حتى القول المأثور الذي كانت قيمته تراثية في حياتنا أفرغناه من قيمته ولم نعد نأخذ به:

«**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»، لكن يبدو أننا صرنا ندمن عمليات اللدغ وقضم لحومنا، وأمريكا تناورنا في زئبقية ..تضحك على ذقوننا ..يبدو من شكلها الرسمي أنها تتحرك في اتجاه حل مشاكلنا ولكنها حركة الثعالب التي تعد نفسها للالتفاف حول فريستها من العرب والمسلمين .

في ديماجوجية يتفق موقعها مع خطط شارون الرامية إلى تصفية القضية الفلسطينية بمناضليها ورموزها والربط بينها وبين القضايا الإقليمية بمفهوم الحرب على الإرهاب، وبما يتفق مع توجهات (المحافظون الجدد) ممثلي اليمين المتشدد في الحزب الجمهوري.

من ثمار هذا الفكر الظني العمل بسرعة في توجيه ضربات وقائية ضد عدو محتمل في مكان ما، أو رسم صورة لإنسان ينفجر صدره بكراهية أمريكا، حيث لا يمكن وضع أمثال هؤلاء إلا في خانة الإرهاب في منطقة كاشفة لصراعات ممتدة أفقيا ورأسياً، تدفع أمريكا للتفكير بآلية في تفكيك هذه الدول وإعادة صياغتها على منوال الحضاراتية الأمريكية.

أعتقد أن المصائب التي حاقت بأمتنا لم تكن وراءها كارثة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١؛لأن أمريكا قد آلت على نفسها منذ ما قبل توقيع اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل وهى تعمل على خلخلة أطر الدول العربية والإسلامية ووضع العراقيل والشروط المجحفة أمام خططها التنموية ودفع مصر إلى حالة من التركيع، مع تهميش دورها الريادي في المنطقة العربية، وحتى تتحول الساحة الفلسطينية إلى مسرح عبثي يتراجع فيه شعار "تحرير فلسطين "لتصبح قضية الأمة العربية مختزلة في تحرير الإسرائيليين من الخوف وتخليصهم من رعب العمليات الاستشهادية .

هذه الأخلاق التي يقاتل من أجلها (بوش)، تجعلنا نقف طويلاً أمام النمط المميز لهيكلية جهاز القيم الأمريكي، والخطورة في ذلك الأمر أنه يجعل من

الأخلاق قضية جاذبة للرأي العام حتى يندفع بطاقة بلاده ضد كل القوى التي تساير أهداف إمبراطورية الولايات المتحدة، دون أن يدري أن أمركة العراق أو أمركة المنطقة العربية لن تشكل سوى التهديد الأصعب لمصالحها، وهو التحدي الأصعب لمستقبلها، ومادام مفهوم العدل والسلام سيظلأن غائبين، فأن المجال الثوري ستتسع رقعته بشكل قد يؤثر على دور الدبلوماسية في حل كافة المشاكل الراهنة.

لا نعتقد أن ذلك يغيب عن فطنة أمريكا إذ أنها ترى بوضوح:

« إن الدبلوماسية تصنع القوة»، ولكن الأنظمة الإقليمية الحالية وفي ظل الانفلات الإسرائيلي أصبحت الدبلوماسية في صنع القوة، مما غير من طبيعة الحوار كوسيلة لحل الخلافات إلى وسيلة لتثبيت الأمر الواقع أو لهدم وضع تتحكم القوة في إعادة صياغته (1) .

ولقد ظهرت منذ ما يزيد على ثلاثمائة سنة قوانين "الإبادة "حين استغرق الرجل الأبيض في الانشغال الجنوني : إبادة الهنود الحمر من كافة المقاطعات الأمريكية.

ويؤكد الدكتور عبد الوهاب ألمسيري بأن هناك عدة شعوب قامت من قبل بإبادة شعوب أخرى، أو على الأقل بإبادة أعداد كبيرة منها.

ووردت في العهد القديم أوامر عديدة بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم، وأثبت الإنجيل كيف قامت جيوش رب المحاربين (يهوه) يحرق خيام الفلسطينيين وذبح الأطفال والنساء والشباب والشيوخ.

"ولكن من الثابت تاريخيا أن العبرانيين والكنعانيين تزاوجوا، وأن معظم ادعاءات الإبادة قد تكون من قبيل التهويلات التي تتواتر في كثير من الوثائق القديمة أو تكون ذات طابع مجازي .وربما يكون قد تم فعلاً إبادة سكان مدينة أو اثنتين، لكن هذا لم يكن النمط السائد نظراً لتدني المستوى العسكري لدى

العبرانيين، كما أن استيطان العبرانيين لم يتم عن طريق الغزو دفعة واحدة، وإنما عن طريق التسلل أيضا، ويستند الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الغربي إلى الإبادة. فهذا ما يفعل سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين، وهى عملية استمرت حتى نهاية القرن ألتاسع عشر (2) .

وتبعا لهذه القاعدة الأخلاقية، كدست أمريكا في العصر الحديث مخزوناً من القنابل النووية بلغ عام ١٩٧٣ حوالي ١٥,٠٠٠ ميجا طن (الميجا طن يعادل مليون طن)، وبلغ عام ١٩٧٧ حوالي عشرين ضعفاً للقدر اللازم لإبادة الكرة الأرضية، وإذا عرفنا أن ما سقط على ألمانيا من قنابل خلال ست سنوات من عام ١٩٣٩-١٩٤٥ تستطيع أن تسقطه الأن قاذفة قنابل واحدة في ثانية واحدة على مكان واحد، فلن نندهش إذا تذكرنا أنه بقاذفة نووية أمريكية متوسطة ألقيت على هيروشيما أبادت في صباح يوم واحد ٢٤٠ ألفاً من اليابانيين.

لم تكن أمريكا بعيدة عن ردود الأفعال التي عمت العالم بأسره من جراء ما حدث من دمار على يديها، وبأخلاق الوحوش غير الآدمية سعت لإبعاد أشباح الفزع عن النفوس من أهوال القنابل النووية، وراح علماؤها يزفون للبشرية خبر حصولهم على قنبلة أطلقوا عليها الذكية.

من يجسر على الاقتراب من هذا الأسم أو من مشتقاته سوى الإمبراطورة أمريكا؟ ...بالطبع غير مسموح لأحد باستعمال هذا النوع من الذكاء والا وقع عليه الشنار والدمار، وصار في عداد قوى الشر، وهى صفة ذات تركيبة خاصة، اعتادت أمريكا إطلاقها ضد من يمتلكون أسلحة بلاستية ولا ينصعون لمشيئتها.

ولفرط إعجابهم بقنبلتهم صاروا يدللونها ويقولون" :القنبلة النظيفة "و"القنبلة الطيبة"، هذه السعادة النيوترونية التي حصلت على الصفات السابقة لسبب واحد رأت فيه أمريكا خيرا كثيراً، إذ أنها لا تدمر ..لا تبيد، بل تسلب أرواح الناس في هدوء تام، وهم ينعمون بالطعام، أو أثناء أداء عملهم وراء المكاتب وفي كافة أنحاء

المدن والحقول والمصانع، وذلك كله تصنعه القنبلة النظيفة جداً، بالإضافة إلى أنها لا تحدث أي ضرر بالمباني والمنشئات العامة، فقط هى تخطف أرواح البشر في صمت.

ومن عدم الإنصاف تجاوز مآثر الرؤوس النيوترونية خاصة بعدما أصبح لها أصدقاء في أمريكا، يروجون لتفريخها، ويدبجون فيها المقالات مؤكدين على فوائدها، أنها تسحب روح الإنسان بالإشعاع، لا بالانفجار ولا بالحرارة.

يضاف إلى ذلك وهو المهم إذا كنا سندلف من باب التكلفة، وهى الغاية الرئيسية في بناء أي مشروع رأسمالي يرى كم سيعود عليه بوفرة تعزز من قدراته الشيطانية، وقد أثبتت المختبرات العلمية أن القنبلة النيوترونية لا تكلف منتجيها مبالغ باهظة، إنها أرخص من حيث التكلفة من أسعار القنابل الذرية، يكفي إنها إذا أبقت على أحد فأنها تسبب لمعظمهم ضموراً في خلايا العقل، وتريح البعض من أوجاع الرؤوس المثقلة بالأفكار، ولا يستغربن أحد إذا حولت القنبلة النيوترونية المخلوقات إلى كائنات نباتية أو حيوانية مائية وسط جو بديع من جمال الطبيعة!

إن مقارنة الإنسان بالحيوانات غير واردة ولا مستحبة بالمرة، ولكن من تلك الأبواب التي يزج بنا الأمريكان فيها، نضطر للنظر في حياة الحيوانات، ونقول: اللهم لا حسد حين نختص من بين هؤلاء جماعة الحمير لأسباب كان من أهمها: وصولها قبل غيرها لمعرفة قدر نفسها وأحجام القوى الأقل حجما منها وتحملا.

لا يفوتني في هذا المقام إلا أن أدعو بالرحمة للكاتب توفيق الحكيم الذي عرف قدر الحمير وصاحب أحدهم طوال فترة طويلة من حياته، ثم أعود إلى نقطة الوعي الغريزي المكتسب لدى الحمير حتى أصبح لهم نظرة قي المواضعات البيئية، وهى نظرة مكنتهم من الحصول على وسائل استطاعت عن طريقها أن تكيف حياتها وفق غاية محددة، تتجلى في حرصها الشديد على البقاء، مع مراعاة ألا تغير على أحد لا بالناب ولا بالحافر، كما يحسب لها أنها لم تصنع في حياتها وسائل إبادة، عكس ذلك تماما، يزرع الأنسأن حقولا من الألغام تحت أقدام أخيه الإنسان، قبل ذلك صنع لنفسه غطاء من الصواريخ اعتقادا منه أنه بذلك هيئ لمجتمعه الأمن وأنه يمكنه أن يسحب اللحاف على رأسه وينام قرير العين.

إن الشيطان يحاور كل يوم زعماء القطب الأوحد، يقنعهم بعدم أهمية

المصاريف على إنتاج الأسلحة المدمرة مهما تضاخمت، فكل المليارات التي تصرف على إقامة ترسأنة نيوترونية تعد لا قيمة لها إلا إذا قيست بالمكاسب التي ستحصل عليها أمريكا من وراء الهيمنة وإعادة تقسيم الأوطأن بين أعراق إثنية وتنصيب الرؤساء على شعوبهم، مع عدم الأخذ بوجهة النظر التي تقول:

إن ما تبتلعه النفقات العسكرية في نصف يوم يكفي لتمويل كل برنامج الصحة العالمية الخاصة بالقضاء على الملاريا، ويكفي ثمن طائرة نفاثة واحدة (٢٠ مليون دولار) لإقامة نحو ٤٠,٠٠٠ ألف صيدلية.

ويكفي مبلغ يعادل نصف الواحد بالمائة من مجموع النفقات العسكرية في العالم لدفع ثمن كافة الأجهزة والأدوات الفلاحية اللازمة لزيادة إنتاج الأغذية والاقتراب من حد الاكتفاء الذاتي"3"

ومما يؤسف له أن الأيديولوجية التي تشكلها إدارة الرئيس بوش تحث الخطا نحو منهجية عدمية، وعلى إيقاع نعيب الغربان تفضل أن تنفق ببذخ لتطوير وسائل الدمار، وتلقي بفضائل البن واللبن في قلب المحيط لكي تظل سعادتها دائمة بالمحافظة على سعرهما العالمي، ولا أحد يشرب اللبن ويحتسى القهوة سوى الأسماك، وهى تتكيف مع جانب كبير من نظرية فرانسيس فوكوياما التي تدعي نهاية الإنسانية .

« إن المشكلة التي يواجهها البشر ليست "نهاية الإنسان "وإنما هى"نهاية الإنسانية "التي يمكن للبيوتكنولوجيا أن توقفها أو تحد منها"4"

بالبيوتكنولوجيا الجبارة تحصد أمريكا أزهار الخير في الإنسان ..بلمسة خفيفة من إصبعها تستطيع أن تحيل الحاضر الزاهر إلى جحيم مستعر حتى ليمكن القول إن أفكار صموئيل هنتنغتون وفرانسيس فوكو ياما إنما جاءت كتعبير عما يجيش في قلب الإمبرطورية الأمريكية، فالأول يدعو إلى الحضاراتية الأمريكية حسب كتابه "صدام الحضارات "والثاني "فوكوياما "يبطن كتاباته بنغمة يوحي بهاجس الخوف

الذي يعتريه على الإنسانية بسبب زيادة المعرفة، كأن المعرفة في حد ذاتها باتت لعنة أو كأنهـا شيطان شـرير، بينما الأمر لا يـتعلق بحسن النوايا ولكن بغـاية القصد والمنفعة التي تعود على الإنسانية من وراء العمل أي عمل.

فليس من المستحب ألبتة أن نطالب بإرجاء التفكير أو نعطي للعقل أجازة تحت مبرر الخوف على الإنسانية من الأفكار الشريرة، والصواب أن نبحث في مكونات الإنسانية الجديدة التي يخشى عليها فوكوياما من زيادة المعرفة، بينما لا يزال غالبية سكان المعمورة لا تصل إليهم الميـاه العذبة ولا يحصلون على الطعام، ولا علـى فرص التعليم والعناية الصحية .

أمريكا تغدق على إسرائيل بالعطايا

إن فوكوياما أسقط هؤلاء من تفكيره، واهتم فقط- بالحديث عن الإنسانية الغربية الغارقة في رفاهية التكنولوجيا، هذه "الإنسانية الجديدة" التي منحت الولايات المتحدة الأمريكية فرصة إرهاب الشعوب العربية والإسلامية وجعلت من إسرائيل كيانا فوق كافة الأعراف والقانون الدولي، وهى ذات الإنسانية التي دفعت بأمريكا في ١٤ سبتمبر ٢٠٠٤ لعقد صفقة كبيرة بينها وبين إسرائيل بلغ حجمها ٥٠٠٠ قنبلة ذكية، ومن المتفق عليه أن هذه الصفقة (الذكيةجدًا) لن تستخدم إلا ضد الدول العربية.

لقد أخذت إسرائيل من أمريكا في عهد جورج بوش الابن ما حصلت عليه من مكاسب في جميع عهود الرؤساء الأمريكيين السابقين باستثناء ترومان الذي أعطاها الحق في الحياة وزرعها في قلب الأمة العربية.

ومما يؤسف له أن كل خطوة تقطعها أمريكا لغير مصلحة الأمة العربية ترى فيها السداد والسلام والمضي نحو التقدم، وواقع الحال يشهد أنها تؤجج نيران الصراع بدلاً من أن تطفئ لهيبه، خدمة لأهداف السلام غير العادل الذي تأخذ بأسبابه إسرائيل، ويصبح السلام الحقيقي كأنه فكرة (طوباوية) حلم مثالي فريد، يلمسه الخاصة في وجدان الشعراء والفلاسفة، أو لعله يعيش في وهم من ليس لبيتهم سطح أو سقف أو وتد في خيمة لاجئ فلسطيني.

يعزو المحللون السياسيون أسباب الانتكاسة في فكرة الإنسانية الجديدة وما شاب ذلك من تخلف إلى ما حدث لأمريكا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ومن توابع ذلك قانون (المواطنة) لذي أصدره بوش القاضي حسب بنوده- بأمن المواطن الأمريكي، ولا اعتراض لأحد على ذلك فمن حق أي رئيس أن يكفل

لمواطنيه الأمن والرخاء، إنما عندما ينسحب الأمر على رقاب الآلاف من الأبرياء الذين يذهبون هناك للعمل والسياحة، فإن الأمر ليعد غير إنساني.

حول الأنتهاكات اللا إنسانية نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ١٥ مايو ٢٠٠٤ تقول:

إن ستاراً حديديا من الظلم وسوء المعاملة تنزل على عشرات الآلاف من المسجونين والمعتقلين دون سبب ودون أن توجه إليهم أى تهمة أو يمثلون أمام القضاء وهم يعملون كمجرمين دون أية حقوق قانونية، ولأنهم في معظم الحالات يحملون جنسيات أجنبية و ليسوا مواطنين أمريكيين، فإن الجهات المسؤولة وجماعات حقوق الإنسان لا تعرف عنهم شيئاً أو تهتم بمصيرهم، وبالأخص أولئك الذين دخلوا إلى الأراضي الأمريكية أملا في الحصول على تراخيص الهجرة أو الإقامة" .

وبغض النظر عن البروباجندا وكلام بوش اللذيذ عن السلام فقد ضمخ الصراع الأبدي حياة الإنسان بروائح زكمت الأنوف بما يؤكد أن السلام المنشود لم يعم يوما أرجاء المعمورة. وأن ما يحدث من سلام هو في حقيقة الأمر لحظات تهدئة.

"ومع ذلك نقبل بفكرة السلام على أساس أنه هدف منشود. وسيظل الصراع أبديا في علاقات الأمم والشعوب ..وهكذا .وطبقا لأدبيات العلاقات الدولية فإن لحظات السلام تسود لفترة أطول عندما تهيمن قوة دولية وحيدة وهذا هو الذي حدث طوال الفترات التاريخية في الحقبة الرومانية والإسلامية وفي ظل الإمبراطوريات المختلفة.

لكن عندما توجد أكثر من قوة متنافسة في النظام الدولي فإنه يحدث نوع من أنواع الصراع والحروب ..إذن هناك ارتباط بين عملية السلام وبين النظام الدولي. فقد وقع حوالي ١٤٩ نزاعا في الفترة ما بين ١٩٤٥- نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة وبين عام ١٩٩٢- وهو بداية العام الثاني لتفكيك الاتحاد

السوفـيتي ونهاية الحـرب الباردة. وهذا الإحصاء طـبقا لمسح قام به مـركز كارتر للصراعـات في أمريكا ..أى أنه في حوالي ٥٠ سنة تقـريبا وقع ١٤٩ نزاعا ولكن بعد الهيمنة الأمريكية في العقد الأخير من القرن العشرين حيث كان من المتوقع أن تحدث حـالة من الاسترخاء والتهـدئة أو حالة مـن حالات التسـوية للصـراعات المتفجرة في العالم. فإن العكس هو ما جرى، إذ حدث ابتداء من العام ٩٢ حتى ٢٠٠٢ ما يقرب من ٥٠ صراعا ونزاعا وحربا وهذا رقـم كبير مقارنة بما سبق هذه المرحلة (5).

لقد أنفقت أمريكا على غزو العراق حتى منتصف عام ٢٠٠٤ (٢٠٠)بليون دولار وهو مبلغ يكفي لبناء ألف مصنع عملاق ينتج المواد الغذائية لملايين البشر.

والحاصل وكما يشهد العالم أن أمريكا لا يـزال عدوانها مستمرا على الشعوب العربية بما في ذلك الشعب الفلسطينـي من قبل انعقاد مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ مع جمـلة مشروعـات سلام وهمـية ومرورا باتـفاقيـة أوسلو سنة ١٩٩٣ التـي تنص صراحة عـلى أنها اتفاقيـة حكم ذاتي، ولا يمكن أن ترقـى إلى استقلال الـسلطة والدولة الفلسطينية المرتجاة، ثم بعد ذلك قدمت لإسرائيل هدية تدعى (واى ريفر) وغيرها من نوع تلك التي تهـتم بإقامة سلطة فلسطينية لها قوة بـوليسية مكونة من أربعين ألف جندي عـملهم الرئيسي حسب اتـفاقيات أوسلو حمـاية أمن إسرائيل وليس إقامة دولة فلسطينية مستقلة.

ذلك وغيره أصـبح متوقعـا من أمريكا، إنما المآسي التـي نخطها نحن بـأيدينا على جبهة حيـاتنا كيف اندفعنا في ظل أجندة غربية حتى بـتنا كعرب- لا نتحرك مع مشاكلنا في ظل أجندة عربية؟

الغريب في الأمـر أننا لم ننشغل بأنـفسنا بقدر ما كـان اهتمامنا منصـبا على البحث عن علاج يجعل أمريكا ترضي عنا، مهمومون بها عساها تكون مبسوطة، إنما هى (كلبظة) كاشحة الوجه ..متخشـبة معنا ..مهما عملنا قراقوزات، كـيف نرضي غرورها أو غرور ربيبتها إسرائيل؟.

ومن اعتادوا أن نقدم لهم التنازلات يرون فيها حقوقا علينا لهم، هم يطلبون وما علينا سوى التنفـيذ مع تقديم فروض الطاعة، في علاقة جعلناها غـير متكافئة

مع الاعتراف بالآخر المهيمن على مقدرات شعوبنا وسط صراع لن يكتب لنا فيه البقاء ما لم يتحرك العرب أنفسهم بشكل فاعل ويعيدون صياغة علاقتهم بالآخر على نحو يعيد إليهم الكرامة.

لابد أن نفتش أولا في أنفسنا ..ماذا نريد منا؟ ..ماذا نريد منهم؟ ..خرج الغرب من ليله المظلم وسبقنا في السيطرة التامة على مواردنا الطبيعية تحت ما يسميه الرئيس بوش :مشروع إصلاح منطقة الشرق الأوسط، وهو في الأصل مشروع صهيوني تقدم به من قبل (وايزهاوبت القس الكاثوليكي) الذي اعتنق اليهودية في منتصف القرن السادس عشر، ويؤكد مخططه على أهمية:

"إلغاء كل الحقوق الوطنية.

إلغاء مبدأ الإرث.

إلغاء الملكية الخاصة.

إلغاء الشعور الوطني.

إلغاء المسكن العائلي، والحياة العائلية، وإلغاء فكرة كون الحياة العائلية الخليّة التي تبني حولها الحضارات.

إلغاء كل الأديان الموجودة تمهيدا لمحاولة إحلال العقيدة الشيطانية ذات الطابع المطبق وفرضها على البشرية (6).

هو نفس عنوان مشروع (بوش) القاضي بتفريغ أوعيتنا الثقافية من مثلنا العليا حتى لا نكون حضاريين نملك قوة التأثير، إنما هو يريد لنا إصلاحا يتماشى مع أهدافه الأمنية، بحيث لا تظل المنطقة العربية- بنظره- معمل تفريخ للعمالة الزائدة والإرهاب.

في خضم أهوال الموت والحصار والمؤمرات التي تحاك ضد شعوب أمتنا العربية، لا نملك سوى أن نستولد بعثا جديداً خال من الأدران، يستطيع أن يشرئب بعنقه ليمنح الجميع مصداقية النهوض في منطقة يدور الصراع فيها بيننا وبين فلول الصهيونية العالمية منذ أكثر من نصف قرن وقد تجاوز في بعض أجزائه

مناطق معارك الحدود إلى صراع رهيب على الوجود.

فمن سيكتب له البقاء؟

في تقرير صدر عام ٢٠٠٤ عن مركز المشروعات الدولية الخاصة (CIPE) أنتقد الفساد المؤسسي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا:

"إن الفساد بالمنطقة أصبح هو القاعدة بسبب الحكومات السلطوية غير الديموقراطية التي تستخدم الفساد منذ سنوات طويلة كأداة لإحكام سيطرتها ونفوذها وتكريس سياسة سيادتها وقوتها-:

لقد تعددت في حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الآراء لا أقول اختلفت. بل تنوعت .هناك من وقفوا إلى جوار الإصلاح الاقتصادي والسياسي، وإن كان الإصلاح الديموقراطي مطلوبا وضرورياً فان البعض الآخر رأى في تلك الآونة:

"أن الإصلاح الانتخابي أوجب وأكثر ضرورة، وذلك لأكثر من سبب، الأول :أن هذين الإصلاحين "الديموقراطي والسياسي "يحتاجان إلى وقت طويل ونوع من التدرج والعديد من الآليات ولا يمكن إنجازهما في يوم وليلة .وإذا كان الأمر كذلك فليس من الصحيح أن نرفض الإصلاح الانتخابي أو نربطه بهذين الإصلاحين.

السبب الثاني :هو أن الإصلاح الانتخابي هو المفتاح لتحقيق ألإصلاحات الأخرى لأن الإصلاح الانتخابي هو قمة الضمانات الديمقراطية، وهو جوهر الإصلاح السياسي عموماً.

السبب الثالث :هو أن الإصلاح الانتخابي لا يستلزم نجاعة من بين الآليات الأخرى التي يمكن استخدامها فى عملية الإصلاح، فهو أسرع من بناء المؤسسات مثلا، وهو أنجع من تغيير الثقافات."7".

الأمر كما يتضح مكّن لأمريكا أن تدس أنفها في خصوصياتنا حين تقدمت بمشروع الإصلاح الاقتصادي والسياسي لشعوب منطقة الشرق الأوسط وهى تدرك تماما أن قضية الإصلاح السياسي من أعقد المشاكل التي تواجه بعض العواصم العربية ,والحقيقة أن المشكلة لا تكمن في الإصلاح وإنما في نوايا من يأخذون على عاتقهم القيام بهذا الدور الاجتماعي.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء : ٧١].

ومن المظاهر الإيمانية أن المسلمين لا يتكلون على عتادهم الحربي، وإنما وهم يجهزون أنفسهم يكون القصد بالتوكل على الله قبل أي شيء طلبا للمؤازرة بمدد من عنده.

إصابة الإسلام في مقتل يرضي أمريكا

للطعن في مثلنا وقيمنا العربية، تكالبت كافة القوى الغربية ضدنا وأفسحت الفضائيات والإذاعات المجال لشن حملات واسعة ضد الإسلام، ثمة أحاديث يجريها أكاديميون حول الطاولات المستديرة مع مثقفين ورجال إعلام، ومفكرون، لا شيء في حياتهم يشغلهم غير الكلام عن التقدم واللحاق بالركب الحضاري من منطق آخر بعيدا عن الإسلام، كان الإسلام معاد لروح العلم والتقدم.

أليس الإسلام من دعى إلى السعي في مناكب الأرض والتفكير والعمل والقراءة؟

لكم تمنى الملتفون حول الطاولات أن يبدوا طيبي السمعة فهادنوا أمريكا حتى لا تطاردهم لعنة بوش بالإرهاب، وأمريكا لا تقبل نصائح الأصدقاء، إنما ليس لديها أي مانع أن يداهنها الجميع، ويتملقها العالم بأسره ..أو ليست هي القطب الأوحد المهيمن؟.

ولقد حرص من اجتمعوا في مؤتمر الدوحة أن يرضوا غرور أمريكا قبل تنفيذ أي برنامج إصلاحي جاد، وأكدوا قائلين:

"إننا نطالب أنظمة الحكم العربية التي لا توجد بها دساتير أن تسرع فورا في استحداثها، كما نطالب أنظمة الحكم العربية التي توجد لها دساتير بضرورة تغييرها أو تعديل موادها ونصوصها بحيث تتحول الأنظمة الملكية إلى ملكيات دستورية يتم الفصل فيها بين (الملك الوراثي) والسلطات التنفيذية فالأول هو رمز الدولة وعنوان الشرعية والاستمرارية، أما الثانية أي السلطة التنفيذية- فهى رئيس حكومة منتخب دوريا من الشعب ويتم تغييره هو وحزبه سلميا بالاقتراع الحر المباشر وبالأغلبية البرلمانية" .

جميل أن يبدأ الجميع في التفكير بعقل، ولكن الأجمل من كل شى ألا يكون وراء ذلك جماعات الإصلاحيين ممن تشكلهم قوة التكنوقراط والبرلمانيون، والإعلاميون وأصحاب رؤوس الأموال وكافة من يرون في قضية الإصلاح منهلا جديدا ينزحون منه، بحيث تظل مكاسبهم مضطردة، وإذا طرأ على المجتمع مستحدثات تقتضيها الظروف فلا يكون من ثم سوى التعديل الذي لا يتجاوز لعبة الكراسي، بحيث يظل من هناك في مواقعهم القديمة وكل الذي يطرأ على أرض الواقع هو تحريك أمكنة الكراسي أو وضع كرس مكان كرس آخر والسلام.

وعقب إنتهاء مؤتمر الدوحة عقدت قمة الثماني في العاشر من يونيو ٢٠٠٤ في (سي لاند) بجورجيا بهدف المشاركة من أجل التقدم ومستقبل مشترك مع منطقة الشرق الأوسط الكبير وشمال افريقيا.

أنصبت قمة الثماني على أهمية أخذ شعوب المنطقة العربية ببنود الإصلاح المقدمة من الخارج، ودلل البيأن الذي نشر على أهمية هذه البنود:

"إن القيم المجسدة في المشاركة أي المبادرة قيم عالمية، فالكرامة الإنسانية وحكم القانون والفرص الاقتصادية والعدالة الاجتماعية هي تطلعات عالمية تنعكس في مواثيق دولية" .

يتكلمون في فراغات القاعات المكيفة عن الكرامة الإنسانية ..أي كرامة إنسانية؟ ..كرامة الغرب بصلفة واستعلائه وسيطرته، أم كرامة الشرق المستعبد في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وفي أجزاء على أرض الصين؟!

وكان للمجتمعين في قمة الثماني رأى غاية في القسوة وعدم المبالاة حينما أقروا:

« أن استمرار هذه النزاعات يجب ألا يكون عقبة بوجه الإصلاح يعني هم يقولون بصريح العبارة :مالنا ومشاكلكم» .

وكيف نعيش كرامة الإنسان وننعم برفاهية العدالة الاجتماعية وسكاكين

القراصنة والاستعماريون تعمل في أجسادنا؟

المثير للانتباه أن واضعي قرارات الثماني يقولون : إنهم استندوا في مسائل إصلاح منطقة الشرق الأوسط على نتف من بيانات مؤتمر تونس وصنعاء والبحر الميت والإسكندرية، وذلك للتأكيد بأن مقرراتهم أخذت من الأسس التي صيغت في بيانات عربية بما سوف يثري الديموقراطية، ويساعد في ذات الوقت على نجاح خطة الدول الصناعية الثماني وفوزها بقبول أطراف الدول المعنية.

الجدير بالذكر أن أمريكا صاحبة السياسات، ترى أنها تملك أوراق الكوتشينة، ولها الحق في رسم خطط اللعب وتوزيع الأوراق على الدول حسب الأدوار المرسومة لهم زمنيا ومكانيا، ففي مرحلة تلعب معنا بورقة الإرهاب، وفي اليوم التالي تضغط علينا بورقة الديموقراطية، أنها تجيد رسم أجواء الديموقراطية، وهى تتمنى ألا تراها في أي بلد عربي .

هذه ما تؤكده وتنصح به ورقة الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية التي صدرت في ديسمبر ١٩٩٠ تحت عنوان" :ورقة السياسة حول الديمقراطية والحكم"، أوضحت فيها تصورها لفكرة الديموقراطية .

"فمنذ الأزمة الاقتصادية في منتصف السبعينات والطبقات الحاكمة في الولايات المتحدة والغرب منزعجة من خطر الديموقراطية "الزائدة عن الحد "عندما بدا أن السخط الشعبي على الفساد الحكومي والحروب الخارجية من شأنه أن يؤدي إلى تآكل الأمن المريح الذي كانت تتمتع به النخب الحاكمة، وهذا ما ناقشته الورقة على أنه مسالة "الحكم "وهو ما يمكن أن يتم عن طريق خفض صلاحيات وحريات الطلاب والنقابات العمالية والعاطلين والأقليات العرقية والنساء" .

وبالطبع ..لم يعلنوا أن الديموقراطية الغربية أصبحت السلطة فيها من المواطن لتسكن في حافظة نقود المستثمر، أنهم يحاولون ألا نرى أنه بات في أمريكا أكثر من مليوني معتقل ونحو ٥٠٢ مليون تحت الرقابة الجنائية.

عجلة الإصلاح تدور ولكن !

لا شك أن هناك ضميرا مؤمنا بالعدالة وأحقية الشعب في ممارسة حقوقه السياسية بالكامل، وهناك مشكلة في إدارة عجلة الإصلاح أو الرغبة الخالصة فيه. فالإصلاح يعني من وجهة نظر الأغلبية انتخابات حرة شفافة وتداول السلطة مع أهمية المقولات المنمقة حول مظاهر الديموقراطية التي تغرق البلاد، لأن هذا يجهض الأعمال الجدية وهى تجابه بمغالاة في خداع الشارع بطيف الحرية والازدهار الذي يغرق البلاد ومن خلال ما تعكسه شاشة المعلومات حيث يرى الجميع كيف اضطرد النمو الاقتصادي وارتفعت نسبة المحاصيل الزراعية مع ارتفاع في حجم الدخول حتى أصيبوا بالدهشة بين ما يرونه ماثلاً على الشاشة وما هو واقع في حياتهم من تناقض .

مثل هذه الإحصائيات استاء منها رجل الشارع، كما أن أمريكا لم ترض عنها فتقدمت بمشروع الإصلاح الشرق أوسطي الخاص بتطوير الكيانات الاقتصادية وكفالة الحرية والديموقراطية للمواطنين بما في ذلك التأكيد على حقوق المرأة المستعبدة من الرجل أياً كان نوعه أبا، وأخاً، وزوجاً، ولا يعرف صاحب المشروع الأمريكي أنه لا يوجد في الإسلام أي انتقاص لحقوق المرأة أو حيف عليها لحساب الرجل، يقول النبي ﷺ : " إنما النساء شقائق الرجال" .

وما يثير النظر والأنتباه أن بعض المسؤولين في البلدأن العربية قد استاؤوا من المشروع الذي قدمه الرئيس بوش، لقد اعتبروه يتهدد حياتهم الخاصة، وتعبيراً عن المصالح الذاتية التي ألبسوها أردية السيادة الملونة بجيشان العواطف الوطنية إلى درجة أسفر فيها موقفهم صراحة عن الرغبة في التجاوب مع فقرات خاصة بحقوق الإنسان وقضايا المرأة، وحول الديموقراطية صرحوا بأنهم يقدمونها في قطرات أو جرعات مثل التي يتناولها الشخص المريض، لأن طبيعة وظروف هذا الإنسان

تقتضي ألا يعطى ما في الزجاجة دفعة واحدة حتى لا تلصق بهم تهمة الشروع في موته، وذلك بإعطائه قدرا من الديموقراطية أكبر من حجم حياته فيموت مثلاً بالسكتة القلبية ومضت دول كثيرة على درب الإصلاح الاقتصادي، ارتضت أن تساوم على حرية مواطنيها بفتح مجالات الاستثمار الأجنبي والتعامل بالقيمة الربوية وحسب الشروط المقدمة من صناديق الاقتراض وخزائن الدول المانحة، وجميعها تهتم في الأساس بحصد ثمار القروض وفوائدها، وكأننا بضمائر من لا إيمان لهم نقول لأمريكا: نحن طوع بنانك، آمالنا معقود عليك حتى لا يزج بنا في دائرة دول محور الشر، تمنياتنا ألا تشيحي عنا بوجهك الكريم، كل ما نبغيه في الحياة أن ندخل على قلبك السرور، فنحن عمَّدنا أرواح أهلنا على مذابح التنازلات على طريق الإصلاح الاقتصادي والسياسي.

بجلاء ..ليس المعيار هو رفع الغبن عن الإنسان الشرق أوسطي وإتاحة الفرصة له لكي ينعم بالحرية ورغد العيش، ويكون عضوا مشاركا في كل ماله صلة بسياسة دولته الداخلية والخارجية، بل إن الأمر معنى في الأساس بدفع العجلة في اتجاه أمريكا بما يحقق فائضاً يصب في أوعيتها الحيوية والتقدم، ولشعوبنا الافتقار والتلاشي، لسبب لا يختلف حوله اثنان، إذ لا يمكن لمفاهيم الاقتصاد الغربي أن تساعد في بناء كياننا الاقتصادي وقاعدتنا الصناعية، ومن العته أن نقر بأنهم لا يساعدون، لكنها المساعدة التي تعينك للنهوض على قدميك بحيث يظل ظهرك موطئا ومطية لمآربهم.

وربما بسبب التخوف من أن يرموا بتهمة التواطؤ مع الإرهاب ضد المصالح الأمريكية وجدناهم في قمة الكوميساً التي عقدت في مستهل يونيو ٢٠٠٤ يقولون لأمريكا إنهم يتبنون قضايا الإصلاح السياسي والاقتصادي في بلدانهم، الأمر فقط مرتبط بالمزيد من الاستثمارات الأجنبية مع التيسير بمنح القروض.

وكان لمصر في المؤتمر موقفا لا تغفل العين عنه، إذ ركزت في الكلمة التي

ألقاها د .عاطف عبيد رئيس الوزراء السابق نيابة عن الرئيس حسني مبارك على أهمية البعد الاقتصادي، ودفع عملية التنمية بالقارة الإفريقية.

"وذلك باعتبار أن الاقتصاد هو القاطرة الأساسية التي تقود إفريقيا نحو الأمام "والملاحظة أن هذه القمة لم تنظر في شؤون الإنسان بالقدر الذي اهتمت فيه بدعم الاقتصاد وكان الاقتصاد الذي تروي شجرته بعرق الكادحين يهبط على الجميع سيلاً مدراراً من السماء، أو كأنه ظاهرة كونية لم يشترك في نموه وازدهاره ملايين البشر.

وتوهم البعض أن مصر نجت من أحابيل عمليات الإصلاح القادمة من الخارج حين ذكر رئيس الوزراء السابق في كلمته:

"إن الإصلاح قضية داخلية وتراكمية تنبع من خصوصية وثقافة كل مجتمع، كذلك فمن المهم أن يكون الدور الخارجي في إطار تقديم الدعم المادي والمعنوي لهذه الدول في دفع عملية التنمية" .

ليس فينا من لا يحب الخير لبلده، إنما عندما يتوهم المشتغلون بمسائل التنمية أن نجاحها منوط بتقديم عروض سخية تكفل حرية حركة رؤوس الأموال للمستثمرين ومن اتيحت لهم تسريب الأموال إلى الخارج فأن ذلك لا يخدم وجها من وجوه الإصلاح الاقتصادي بل يساعد على ضخ النزيف الاجتماعي المحاط بترسانة من قوانين الانفتاح .

يؤرخ بعضهم لبداية عصر الهزات والخلخلة الاقتصادية بعام ١٩٧٣، فبعد عبور القوات المصرية خط بارليف ضرب حول مصر حصاراً اقتصاديا لم تمر بمثله إلا في عهد محمد علي أثناء قيامه ببناء مصر قوية ذات سيادة، حينذاك، ضرب الغرب أساطيله وحطموا بنية المجتمع الاقتصادية، الأمر الذي عادوا لارتكابه، ولكن بصورة مغايرة حين وقعت مصر معاهدة كامب ديفيد (١٩٧٨) وفرض عليها التخلص من ملكية الدولة وعرض القطاع العام للبيع بحيث يتحول الاقتصاد

المصري الإنتاجي إلى مجتمع الاستيراد والاستهلاك.

١٧٢ شركة كانت تملكها الدولة بالكامل لها قيمة اقتصادية عالية، ويعمل بها ٤٠١ ألف عامل يتقاضون ٤,٥ مليار جنيه في السنة، وافق الرئيس مبارك على إنشاء لجنة خماسية لاعتماد التقييم الذي ستعده الشركات القابضة تمهيداً للبيع حيث سيتم عرض هذا التقييم على لجنة خماسية لاعتماده قبل المضي في عملية البيع.

تضم اللجنة مندوباً عن الجهاز المركزي للحسابات وهيئة سوق المال والبنك المركزي، وعضوا من جمعية المحاسبين والمراجعين المصريين.

وتوالي حكومة مصر بالغ الاهتمام بقضايا التنمية، ويقولون : إن الاستثمار الناجح يتطلب شروطا ومناخاً أكثر استقراراً في الدخل، وقد بذلت مصر من الحوافز ما يغري ويسيل له لعاب المستثمرين ..تخفيض أسعار الأراضي المخصصة لانشاء مشروعات جديدة ..إعطاء حوافز للمستثمرين الجادين ..تخفيض التعريفة الجمركية ..إصلاح النظام الضريبي وكذلك السياسات المالية والنقدية.

وعلى الرغم من ذلك عرفت ١٥٥ مليار جنيه طريقها لجيوب مجموعة من رجال الأعمال، بعضهم فر إلى الخارج بغنائمه، والبعض الآخر تعثر في السداد، وما جرى من مآس في "بنك مصر إكستريور "وهو قطاع خاص نشأ بمشاركة أسبانية وقع في "بنك القاهرة " قطاع عام- حيث غرر بعض المستثمرين بمدير البنك، وربما والله أعلم يكونون قد عملوا لسيادته عملاً أخذوا بمقتضاه المليارات وفروا إلى دول الشمال مع تعظيم سلام لهم على أرض مطار القاهرة، وأصبحت مصر المطعونة بأيدي أبنائها، وبسبب هذه السياسات المالية اللامسئولة تحتل أدنى مرتبة من حيث إجمالي الناتج المحلي في الشرق الأوسط بعد سوريا واليمن.

ومع ذلك لا تزال مصر -رعاها الله- بخير وهى تحاول النهوض من كبوتها لتبني اقتصادها من جديد على تدفق رؤوس الأموال والوفود السياحية وإنشاء المزيد

من المنتجعات، وقد تقترض من صندوق التأمين والمعاشات ولا تألوا جهداً في اللهاث وراء طلبات القروض الأجنبية بغية الإصلاح.

ومن المؤسف له أن كيانات عربية عديدة ارتضت لنفسها السير مع حركة التيار الرامي إلى الإصلاح وربط المساعدات والقروض الخارجية لرأب الصدع الذي أصاب أبنيتها الاقتصادية، حتى بدا الأمر في ظاهره إصلاح وتنمية، وباطن الحال يرمي إلى تصحيح أوضاع البيئة العربية التي تعتبرها أمريكا مصدرا للإرهاب.

فقد أصبح هذا المطلب في رأى واشنطن من متطلبات الأمن الأمريكي، وليس مجرد شأن داخلي لهذه الدولة أو تلك، وشرعت بعض الدول بالفعل في تعديل نظمها التعليمية وخطابها الإعلامي، وشددت القيود على الجمعيات الأهلية خاصة العاملة في المجال التطوعي والخيري، وسواء تمت هذه الإجراءات تلبية لضغوط أمريكية صريحة أو ضمنية، فنحن بالفعل أمام سياسات داخلية خضعت لمطالب الإمبراطورية الأمريكية.

ويهتم بعضهم باستعمال آلة التناسي، يتناسون أن لدى شعوبنا تراثا حضاريا.. فرعونيا ..قبطيا ..إسلاميا، ومنجزات على مر العصور، وتاريخ لم تحظ بمثله أمريكا ذات التاريخ الميلادي الذي لم يتجاوز عمره الخمسمائة سنة.

ومن الموبقات التي يريد مشروع الإصلاح الشرق أوسطي فرضها على كافة المسلمين، إسقاط كتاب رد الظلم في حياتهم و عدم الخوض في سيرة الجهاد والذهاب للجهاد في سبيل الله بغرض تقويض أركأن الأمة الإسلامية، وبذلك يتهافت المسلمون وتتداعى العقيدة بحيث لا يعرف أحد من الأجيال المقبلة أن أسس الجهاد في الإسلام قد مر بأربعة مراحل:

في البدء لم يكن مأذونا به .

ثم مأذوناً فيه.

ثم مأمورا به ضد من تسول له نفسه، الاعتداء على حرمات المسلمين، ثم مأمورا به في حق جميع المشركين، ولعلنا نكون قد حفظنا الدرس عن ظهر قلب، يوم أن بدأ الإسلام في مكة لم يكن للمسلمين قوة فحرم عليهم القتال، وأعطت طبيعة المرحلة فرصة الجهاد بالدعوة باللسان وإقامة الحجة على الكافرين.

وفي المرحلة الثانية، وبعد أن تمكنت الدعوة الإسلامية من القلوب وهدت العقول إليها وأصبحت عقيدة إيمانية راسخة، أذن الله للمسلمين بالقتال، وكأن ذلك في المدينة المنورة.

وخلال المرحلة الجهادية الثالثة، أمر الله المسلمين بقتال من يعتدي عليهم: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١٩٤] وأما المرحلة الأخيرة فقد صار القتال فيها عاما لجميع المشركين.

القاعدة الجهادية تقتضي أن الجهاد فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا لم يقم به أحد فقد أثم المسلمون جميعا، وذهب العلماء إلى أن الجهاد فرض عين في ثلاث حالات .

الأولى:

إذا التقى جيش المسلمين بجيش الكفار وجها لوجه، وتقابلت الصفوف، فعندئذ يحرم على من حضر هذه المواجهة الانصراف، وتعين عليه المقام والجهاد.

الثانية :

إذا نزل الكفار ببلد من بلاد المسلمين تعين على أهل هذه البلد قتالهم ودحرهم حتى تحرير أرضهم من دنس المحتل.

الثالثة:

إذا استنفر الحاكم جماعة من المسلمين (أي طلبهم للجهاد) لزمهم النفير معه

ظهر ذلك بجلاء بعد أن ربحت الحرب الباردة وتلاشت هيبة الدب الروسي، وحين وجدت نفسها على الخريطة الجيوبولتيكية في موقع القطب الأوحد الذي له وحدة- حق المبادأة والإغارة على الشعوب كما حدث في جواتيمالا وكوبا وشيلي والكنغو وأنجولا بدت أنها الشر ذاته وأنها معقل الإرهاب الدولي.

لا مانع لديها أن ترتكب الجرائم وهى ترتدي قناع الخير من أجل "الإنسانية الجديدة "ومن خلف ستار ديموقراطي يشف عن زيف النمط الغربي، وهو ما يصح أن يطلق عليه إمبريالية الفضيلة وإلباس الهيمنة جلباب الأخلاق والحضارة انطلاقا في محاباة إسرائيل .

إذ منذ أن تفتحت عيوننا على الحياة ونحن نرى إدارات الحكومات الأمريكية وهى تقف التي جوار جرائم إسرائيل، ولن ننس دعم حكومة ريجان لها، وما فعلته إدارة جونسون، عندما ضللت مصر قبل حرب ١٩٦٧ .

كما أن هناك أكثر من ثمانية وثلاثين قرارا صدرت من الأمم المتحدة لصالح قضية فلسطين والشعوب العربية ..أمريكا هى الوحيدة التي خرجت من الشرعية الدولية ..استعملت حق الفيتو فشلّت بذلك إرادة ممثلي أكثر من مائتين دولة داخل أروقة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

وفي صلف الإرهابيين الذين لا وازع عندهم من ضمير يقف (بوش) متحديا ارداة الشعوب وهو الذي يغرينا بالعمل على منوال ديموقراطيته فيقول:

"إذا كانت الأمم المتحدة تريد أن تكون ملائمة فعليها أن تفعل ما يقوله» .

وفي حالة عدم تجاوبها مع خططه أكد قائلاً:

"سأتجاهل رغبات مجلس الأمن وأنتهك ميثاق الأمم المتحدة" .

وعلى اتساع الشرق الحضاري بين محيطي الأطلنطي والهادي والهندي جنوباً، اشتدت قبضة الاستراتيجية الأمريكية، وبعد أن تأمل بوش في صخب المحيطات أطلق آخر صيحاته لتأديب العالم، فقد أمر بتشكيل لجنة تابعة للكونجرس مهمتها الأساسية مراقبة دول العالم التي تأخذ موقفا من اليهود والسامية، وعلى أعضاء اللجنة تقديم كشف له سنويا باسم الدول وعدد من يعارض موقف اليهود أو يقول

لأحد منهم بم !فيضعهم في خانة الدول التي تساند الإرهاب، ويذلك يمكنه محاربتها وفرض العقوبات الاقتصادية عليها" .

"وقصارى القول أن الرئيس (بوش) يستطيع بدء الحرب ضد أي أحد في أي وقت، ولا أحد يملك الحق في منعه (8) .

ويرى كلاهما وش وشارون- أن لهما الحق في العمل دفاعاً عن كيانهما، ولهما أن يستخدما هذا الحق بصرف النظر عما يقوله ميثاق الأمم المتحدة، ثم بعد ذلك يجأر صوته متسائلاً أمام الآلاف من المحتشدين لسماع خطابه أثناء الحملة الانتخابية الأخيرة التي انتهت بفوزه:

لماذا يكرهوننا ؟

في النصف الأول من عام ٢٠٠٤ انتهز زيارة شارون لأمريكا وأسبغ عليه صفة رجل السلام، ثم قدم له هدية كانت عبارة عن "خريطة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات "تعبيرا عن الحب والتزاوج الروحي والمادي بين البلدين.

وأوضح شارون في "موسوعة المعلومات العالمية الأمريكية "مدى الحب والتعاون بين إسرائيل والولايات المتحدة وركز على مبادئ هذه الصداقة القائمة على الديمقراطية والحرية والسلام، وأضاف:

« نحن متشوقون لقيادة المنطقة للثبات ومنع العنف والاضطرابات » .

ورد عليه بوش بكلمة مثبوتة في موسوعة المعلومات قائلاً:

" نحن نتكلم عن المبادئ ونقف مع أصدقائنا في العالم، وواحدة من أهم أصدقائنا في العالم هى دولة إسرائيل" .

وتحت هذه الخطوط استطرد موضحا التعاون الأمريكي الإسرائيلي ..المواضيع والأغراض التي يشملها.

الإمداد بالأبحاث والدراسة والمناقشة وتبادل الآراء المختلفة فيما يتعلق بالمواضيع العسكرية.

تقدير المشاركة بين الناس والحكومة الأمريكية والإسرائيليين وتسهيل المعلومات والصداقات بين الإسرائيليين والأمريكيين.

النشاط الجمهوري والفوائد التي تعود على أمريكا وإسرائيل، منها :توضيح المبادئ العامة التاريخية بين حكومة إسرائيل وأمريكا ..تعميق البحث عن المعاهدات في الاجتماعات خدمة للتعاون بين أمريكا وإسرائيل ..الإمداد بالمواد التعليمية عن التاريخ اليهودي لأمريكا" .

ومن المعروف أن التعاون الأمريكي الإسرائيلي أنشئ عام١٩٩٣ لتقوية العلاقات الإسرائيلية الأمريكية:

"ولتأكيد القيم الخاصة بشعوبنا، وتطوير البرامج التعليمية والاجتماعية في الولايات المتحدة، مع أهمية الأخذ بالنماذج المبتكرة الإسرائيلية الناجحة التي تؤدي إلى إيجاد حلول للمشاكل الأساسية المشابهة وتحضير برامج أمريكية جديدة إلى إسرائيل" .

ودعما لاستراتيجية الثبات ومنع العنف والاضطربات أدار الرئيس الأمريكي جهاز حكومته بفريق متجانس كل أعضائه من اليهود والموالين لإسرائيل حتى تتم هزيمة العرب والمسلمين على أيديهم ويعترف الكفار (الذين هم نحن العرب) بشرعية الكيان الصهيوني وسيادته على أرض فلسطين، مع التأكيد على ألا تضغط أمريكا لاسمح الله- على حليفتها لتسليم أراض تحتلها، وعدم الانزلاق بالوقوف إلى جانب قضايا العرب العادلة(ولو مرة من نفسنا) .

وفي الوقت ذاته امتلأت خطب (بوش)وأحاديثه بالكلام حول الحريات التي ينشدها لشعوب الشرق الأوسط، ووفق أحلامه لشعوبنا بالديمقراطية خطب في "وست بوينت "قائلاً:

"إنه عندما يتعلق الأمر بالحقوق والحاجات المشتركة للرجال والنساء، ليس هناك تصادم حضارات .فمتطلبات الحرية تنطبق كليا على إفريقيا وأمريكا اللاتينية

وكامل العالم الإسلامي".

حرية إفريقيا وآسيا من وجهة نظر "البوشية "إذا صح التعبير تعني القضاء على أواصر الأسرة العربية المسلمة، وأن ينغمس المواطنون في مباذل الإباحية، وإتاحة الفرص أمام الشباب والفتيات لممارسة رغباتهم تعبيراً عن ما يسمى "بالحاجات المشتركة للنساء والرجال".

وعلى المستوى الإداري يرى من الضروري لمواكبة عصر الإصلاح الأمريكي أن يُدفع بكوادر محلية تكون قد تشربت الروح الغربي حتى الثمالة، لتحتل المناصب الهامة في المؤسسات الوطنية، ومن مهام هؤلاء الوظيفية العمل على توليد جيل مدجن من السياسيين والإداريين الخاضعين للإيهامات الأمريكية.

إننا لا نلوم ولا ندين من ذهب على ظهر ناقة أو نفاثة إلى أمريكا ليعرض خطط مؤسسات بلاده الخاصة بالإصلاح، ولكن ليس من الضروري أبداً أن نرقص الجاز الغربي، بل المهم والضروري أن نتخلص نهائيا من تشنجات الرقص الشرقي وبكل ما له صلة بالمغص العقلي والتقلصات النفسية.

ثم...

ما الذي يمكن أن نفعل الآن؟

ما الذي يتحتم فعله بعد الآن؟

يتمخض الواقع عن أسئلة في حجم مأساة أمتنا على يدي اليهود والأمريكان ..أسئلة بحاجة إلى نبي وقائد عسكري قي قامة خالد بن الوليد وصاحب قرار مؤمن في حجم وصلابة عمر بن الخطاب وعدله.

ولكن إذا كانت الظروف غير مواتية ولا أحد من هؤلاء يعيش بين ظهرانينا اليوم، فلا بد أن نسقط عن وجوهنا مختلف الأقنعة في مناخ غير صحي، بل ومشغول باستمرار بمجموعة من القرارات والبيانات التي تتضمن صيغة سياسية غير مشمولة بالتنفيذ.

بعبارة كـاشفة .أهمية العمل على إيجاد قاعدة شعـبية عريضة ينطلق الشعب منها ليحكم الشعب بالشعب، بمعنى ألا يكون الحكم حكراً على أحد ولا على طبقة أو شريحة مـتنوعة وأن تكون الديموقراطيـة هى وسيلة لاختيار رئيـس الدولة والجهاز التشريعي والتنفيذي وأن تتاح فرص العمل والتعليم لكافة أبناء الوطن، لأن التعليم كما قال طه حسين: كالماء والهواء "وحرمان الفقراء لأنهم فـقراء من أن يتعلموا، ويرقـوا، وأن يصلحـوا أحوالهم، وأن يطمحوا إلى الكمال تقـرير لنظام الطبقات وإيمان سلطة المال وليس هذا كله من الديمقراطية في شيء .

وليس من الديموقـراطية في شيء أن نتحدث عـن التغير بصفـة عامة دون أن نطالب بالإصلاح الدستوري وإلغاء كافـة القوانين والمحاكم الاستثنائية، ولا يعـقل بحال من الأحوال أن نغض الطرف عن وجود قوة سياسية منتشرة في المدن والمراكز والقرى ممثلـة في الإخوان المسلمين دون أن ندعوهـا إلى المشاركة في عملـية البناء الديموقراطي، ولا ننسى:

"إن الإخوان يملكون الـقدرة على دفع ثمن المعـارك السياسية مـن حرياتهم، ومن حياتهم، وهو ثمن لا تدفعه سائر القوى السياسية ...فممارسوا العمل العام مستعدون للعمل السياسي السلمي، وليسوا مستعدين لدخول السجن، أو للتعرض للتعذيب، أو الوقوف أمام محاكمات عسكرية "9" .

ومن يطالع الرسالة الأولى للمرشد العام بتاريخ ٢٠ شعبان ١٣٥١هـ (الموافق ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٣٢م) بعد أن انتقلت الـدعوة من الإسماعيلية إلى القاهرة سيرى أنها كانت تطمح لخير الإنسان وكماله .

"سلامة الاعتقاد والاجتهاد في طاعة الله تبارك وتعالى وفق الكتاب والسنة.

التأدب بآداب الإسلام الحنيف.

تربية النفس والترقي بها إلى معرفة الله تعالى وإيثار الآخرة على الدنيا.

الثبات على المبدأ والوفاء بالعهد مع اعتقاد أن أقداس المبادئ هى الدين.

الاجتهاد في نشر الدعوة الإسلامية بين طبقات الأمة ابتغاء وجه الله.

حب الحق والخير أكثر من كل شيء في الوجود (10).

واهتم الإخوان المسلمون أن يأسسوا نظاما إداريا يدعم العلاقة بين الفرد والجماعة على ألا تكون الأنشطة الداعمة لحركة الجماعة قائمة على حركة السوق والدخول في حلبة المنافسة:

"وعندما أراد بعض الإخوان باسم الإخوان أن ينزل في الميدان الاقتصادي بحجة منافسة المال اليهودي والأجنبي الذي كان يقبع على صدر الاقتصاد المصري بل ويتحكم في مجريات الشؤون الاقتصادية للوطن فإن الشيخ حسن البنا لم يوافق إلا بشرطين:

الأول :عدم الخلط بين نشاط الدعوة والنشاط الاقتصادي لا في الشكل ولا في الموضوع بمعنى ألا تكون هناك شركة تجارية أو مشروع اقتصادي يحمل لافتة أو شعار الإخوان المسلمين ..صحيح المال لازم للدعوة، والدعوة محتاجة للمال ولكن الدعوة شيء في نظمها وطبعتها والمال شيء آخر في نظمه وطبيعة دولابه.

الثاني : ألا تكون له صلة بهذه الأعمال لا من قريب ولا من بعيد صيانة لشخصه ووقته ومجهودة (11).

إننا لا ندعو ولا نروج لأحد، ما يعنينا هو موضوع الحرية والمشاركة الاجتماعية بعد أن عانى الشعب في أزمنة مضت من تحكم السلطة التي كانت تحدد للإنسان المسموح له والممنوع عليه، وفي ظل الهيمنة الأمريكية التي تتحمل جانبا كبيراً عن نشأة ما يسمى بالإرهاب الأصولي.

مع العلم أن أمريكا لن تدعنا نفلت من بين يديها بسهولة، خاصة وأن ما تدعيه حول الإصلاح وحقوق المرأة وحرية التعبير هو كذب سافر، لأنه لا مصلحة حقيقية لها في أن ينعم المواطنون بظلال الديمقراطية، لا يهمها الشعوب ولا مستقبلها، كل ما تبغيه من وراء دعواها العثور على جواد تؤدي فوق صهوته دوراً

من أدوارها ومطايا محليين يساعدونها على بسط النفوذ وإشاعة حضارتها.

ومن يتاح له النظر في تاريخ منطقتنا يجدها قد تحالفت مع ديكتاتوريين حكموا الشعوب بالحديد والنار، ولم تتوق نفسها للإصلاح ولم تتغن لمجد حرية الإنسان، لأنها وجدت مصلحتها مع الإبقاء على هؤلاء الطواغيت وحماية عروشهم.

وبالضغط على أعصاب الملكيين والرؤساء، وحتى تهيئ لنفسها فرصة الإيقاع بهم في شراكها، أعلنت أن شعوب العالم العربي بحاجة إلى "الحكم الرشيد" وهو حكم أصدرت أمريكا حيثياته ضمن القاموس المتجدد الذي تبتكر به كل حين وآخر توجها معينا، تحاول نشره على اعتبار أنه الوصفة السحرية لتقدم منطقة الشرق الأوسط ورخائها.

تشاغل الرؤساء مدة بهموم قضية (الحكم الرشيد) هل تريده أمريكا مطربشاً أو معمماً أو يدير حول رأسه عقال القبائل؟ ثم اتضح أن قضية الحكم الرشيد كانت إحدى الأوراق التي تلعب بها أمريكا علينا تمهيدا لتغيير الخطط الأخطبوطية المتفرعة عن دعوة "العولمة "واستبدال مفاهيم القرن الثامن عشر في الغزو والاستعمار بنشر دعاوي العالمية والإنسانية الجديدة، ولتدخل بها الصراع الدائر وبشكل أكثر خطورة مع الإسلام .

القواسم المشتركة ليست في مستوى التحدي

لقد عالج صموئيل هنتنغتون هذه النقاط وغيرها في كتاب "صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي "الصادر عام ١٩٩٦ أي بعد كتاب فرانسيس فوكاياما "نهاية التاريخ "بنحو أربع سنوات.

والكتاب يشتمل على عدة موضوعات أخرى :فكرة الحضارة، إشكاليتها حضارة إنسانية أو كونية، العلاقة بين القوة والثقافة، توازن القوة المتغيرة بين الحضارات، التأصيل الثقافي في المجتمعات غير الغربية والتركيب السياسي للحضارات التي ولدتها العالمية الغربية، الأصولية الإسلامية وغيرها من القواسم المشتركة للحضارة.

وصنَّف هنتنغتون الحضارات البائدة والحضارات القائمة في زمننا وعددها بدءاً من الحضارة الغربية.

وتضم النموذجين الأوربي والأمريكي وبعض الدول التي استوطنها الأوربيون مثل استراليا ونيوزيلاندة، والحضارة الكنفوشوسية أو الصينية والحضارة اليابانية والحضارة الهندوسية، أو الهندوكية، والحضارة الأرثوذكسية وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارة الإفريقية، والحضارة الإسلامية.

ويلاحظ أنه على درب الحضارات وما يكاد يفتح فيها باب للنقاش والجدل إلا ونجد إسرائيل تقحم نفسها فيه، ويشهد الغرب إلى جوارها بأن حضاراته قائمة على أسس يهودية مسيحية، وما يعنينا في هذا الصدد أن من مظاهر الزيف التاريخي ما تدعيه إسرائيل وتحاول أن تقنع به الغرب الأوربي والأمريكي بأن إقامة دولة إسرائيل هى أعظم منجزات الحضارة الغربية في القرن العشرين .

ومنذ الوهلة الأولى نلمس مدى اهتمام البروفسيور هنتنغتون بقضايا الحضارات والعرب والمسلمين وعمق صلة الغرب بهم، ليس من منطلق التحاور القائم على الأنصاف، وإنما من خلال اصطدام الحضارات ببعضها وإعلاء لقيم الغرب في مناخ

يتسم بالحركة العكسية والاضطراد المستمر منذ النصف الأخير من القرن الماضي حيث أنتعشت القوى الآسيوية وقامت بتوسيع قواها الاقتصادية والسياسية والعسكرية:

"وهكذا فمفهوم الحضارة عنده هنتنغتون- يشمل الثقافة بما تحمله من معان ترتبط بالدين وأنماط الحياة والعلاقات والعبادات والطقوس، ولهذا فهى تشمل خصوصيات الأقوام والشعوب والجماعات الدينية والعرقية (12).

ومع أهمية الإنفلات من التمييز الصوري إلى التمييز الحقيقي، فلا ريب أن الطقوس تفترض موضوعا مؤصلاً له شرف الانتساب إلى الماضي الذي عاشته الإنسانية، ولا أحد يستطيع إزاء ثراء التراث أن يطعن فيه أو يحمل عليه، ولا شيء غير تصور وجوده كضرورة تساعد في دعم الهوية وروح الانتماء على طريق الإحياء الديني، وبعيداً عن ازدواج المعني.

وبما أن الربط بين انتعاش الدين وازدهار الحضارة الإسلامية صار أمرا مهما إلا أنه لا يزال مثل جدل واسع النطاق في الغرب، وينتهي عادة بأن يرد بعضهم أسباب حضارتنا إلى الوهن الذي أصاب الغرب في مفاصله.

" إن الإحياء الإسلامي، كما يناقش البعض، كان أيضا "نتاجا لاضمحلال مكانة الغرب، فعندما تخلي الغرب عن سطوته، فقدت مثاليته ومؤسساته ..أن تصرفات الدولة الإسلامية الغنية نفطيا "إذ ما وضعت في إطارها التاريخي والديني، والعنصري، والثقافي لا تشير إلا إلى محاولة جبارة لإرغام الغرب المسيحي على تقدير وإجلال الشرق المسلم (13) .

مغالطات بالجملة، وأخطاء فادحة يرتكبها هنتنغتون في حق التاريخ وبما لا يتسم بالموضوعية، فالغرب الحالي بمجتمعاته المعلوماتية والتكنولوجية لا يمكن لمدع أن يرميه بالاضمحلال، أما تخليه عن سطوته فمسألة لا يرجحها عقل عصفور صغير، والحقيقة أنه انخرط في أساليب السطو الإمبريالي بشكل لم تصل إليه

شراسته الاستعمارية إبان القرن السابع عشر.

ويتنبأ هنتنغتون بخطورة الوضع عندما يعود المسلمون إلى النهل من تراثهم، فسوف يكون الانبعاث الإسلامي مثل الحركات المشابهة بما في ذلك الإصلاح الديني:

"فالمسلمون سيكون لديهم إدراك أعظم جداً لما لديهم كقواسم مشتركة وما يميزهم عن غير المسلمين .الجيل الجديد من القادة الذين سيصلون إلى السلطة في وقت تكون فيه شريحة الشباب قد ترعرعت لن يكون بالضرورة من الأصوليين، ولكن سيكون أكثر التزاما بالإسلام من أسلافهم ...

إن "الإسلام هو الحل "لمشاكل الأخلاق والهوية، والمعنى، والإيمان ...فإذا استمرت ماليزيا وأندونيسيا في تقدمها الاقتصادي، فأنهما من الممكن أن يطرحا "نموذجا إسلاميا "للتطور لينافس النماذج الغربية والآسيوية(14) .

ولكن قد يتعثر هذا الحل في بعض الأوقات مع الافتراض بالقيام بعمليات واسعة النطاق ضد ما يسمى ببؤر الإرهاب الذي تنمو قواه لأسباب داخلية من أبرزها الصراع العربي الإسرائيلي، والصراع العربي ضد قوى التحالف الغربي بقيادة أمريكا على أرض العراق وأفغانستان.

في عالم أحادي القطبية أصبحت أمريكا تفعل في شعوب العالم ما تشاء، ومن الملحوظات المقيتة ما لمسه صموئيل هنتنغتون من تصرفات الإدارة الأمريكية وقام بتسجيله فوق صفحات دورية "لفورين إفيرز".

"إن المسؤولين الأمريكيين يبدون كما لوكانوا مصابين بالعمى إزاء حقيقة أنه ما أن تشن الولايات المتحدة حملة ضد حاكم أجنبي حتى تزداد شعبيته في بلده".

وعلى الرغم من أن كثيرين وقفوا ضد سياسة القوة والغطرسة وكأن على رأسهم "لي هاملتون "العضو بمجلس النواب الأمريكي:

"وكان أول من وجه الأنظار إلى ضرورة مراجعة سياسة القوة في مطلع

التسعينات، من خلال مقالة تاريخية نشرها في عدد صيف ١٩٩٢ من دورية "فورين إفيرز "بعنوان" :رؤى ديموقراطية في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية(15).

وواقع الحال أن شيئا من ذلك لم يحدث، بل ازدادت موجات الإرهاب الأمريكي ضد كل من لا تتفق مصالحه مع أمريكا أويختلف معها بالجدل في الوقت الذي ارتفعت معدلات دعمها لإسرائيل في شتى المجالات .مما حدا بإسرائيل أن تتباهى في صلف وغرور بأنها أعظم منجزات الحضارة الغربية .

بينما يؤكد التاريخ غير المغلوط أن كيانها أقيم في لحظات هاربة من وجه الحقيقة خلال مرحلة كانت فيها عمليات الاستعمار البريطاني وعمليات بناء الإمبراطوريات تتراجع وأعمدة القساوسة قي حضارة الغرب المسيحي تتداعى.

من قبل ذلك وهم معنيون بصناعة إيمان قوي للوجود اليهودي الذي يفترض وجود "شخصية يهودية ثابتة "مستقلة عما حولها من ظروف.

"مع أن "التاريخ اليهودي "الذي يفترض وجود تاريخ مستقل له سماته المحددة .ووحدته الواضحة، وفتراته المتتالية التي تعرَّف بالعودة إلى جوهر يهودي، أو وجود مستقل، هو أمر يتناقض مع الواقع التاريخي الحى المركب، فالمشاكل التي واجهها يهود الإمبراطورية الرومانية هي جزء من تاريخ هذه الإمبراطورية، والمشاكل التي واجهها يهود المدينة أيام الرسول ﷺ ناجمة عن وجودهم داخل التشكيل الحضاري الإسلامي في الجزيرة العربية، كما أن المشاكل التي واجهها يهود روسيا في القرن التاسع عشر الميلادي كانت نابعة من وجودهم داخل التشكيل السياسي الروسي في عهد القيصرية، تماما كما أن المشاكل التي واجهوها بعد عام ١٩١٧ هى جزء من تاريخ روسيا السوفيتية، أما من هاجر من يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة، فقد أصبح تاريخه وكذالك مشاكله جزءاً من تاريخها، ومع أن هذا لا ينفي وجود مشاكل خاصة نابعة من خصوصية وضع أعضاء الجماعة

اليهودية داخل هذه التشكيلات، فإنه لا يوجد عنصر مشترك واحد يجمع بين هذه المشاكل الخاصة، إذ أن هذه الخصوصية نفسها مستمدة من طبيعة علاقة الجماعة بالمجتمع الذي تعيش في كنفه وتتشكل في إطاره وليس لها علاقة بخصوصية يهودية تشمل كل اليهود"16" .

وما يشين ويدين في الوقت نفسه ذلك الاحساس المبكر لدى إسرائيل والمفرط في الدونية، حين تباهي بقيام حضارتها على أساس واحد مجسداً في سيادة القومية اليهودية، ونفى ما عداها، مع الإيمان بأن حضاراتها موجودة من يوم أن أوجد الله العالم وكما هو مثبوت في سفر التكوين، ورأت لكي تظل حضارتها قائمة بالفعل، ولا يكون هناك من ينال منها أو يكدر صفاءها أن تضع للمسألة العربية الإسرائيلية حلولاً تمثلت في عدة نقاط:

* تحاشي أي كلام معهم.
* إنكار وجودهم.
* مناصبتهم العداء بشن حروب ضدهم لا هوادة فيها.

وقبيل لحظات قيام الكيان الصهيوني، رأيناهم يغذون حضارتهم المدعاة بحد السيف، ويفاخرون باستمرار بأنهم دولة المحاربين العظماء، وينشرون في قلب العالم أنهم واحة الديموقراطية وسط غابة تغص بحثالة من العرب.

وما يسترعي النظر والانتباه أن من صفات الحضارة الصهيونية انغلاق كامل على الذات، حيث لا يسمع اليهودي إلا هواجسه، وما يمتلئ به وجدانه من رجف الذاكرة، مع يقظة تامة في وضع الخطط المحكمة لسرقة تاريخ الأمم، كما فعلوا في التراث المصري والكنعاني، ثم بعد ذلك يغلقون على أنفسهم، ولا يريدون أن يتقدم منهم أحد.

بينما التراث الحقيقي الحضاري هو الذي يخرج للنور منفتحا على الآخر، دون أن يخفي ثقافته وتاريخه وفلسفته، مستهدفا أن يفيد الناس من علومه وفنونه

وتجاربه حتى يخصب منابع التدفق في أوعية الإنسانية.

هذه إحدى ثمار الحضارة، ولقد صور العلي القدير هذه المعاني لتكون للعالمين نورا وهداية في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِن أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ أَنِ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] .

عـود على بـدء

توصل الرئـيس السادات- تغمـده الله برحمـته الواسعة- إلـى نتيجة لمـعادلة صعبة في حياتنا قلبت المعايير داخل الوطن العربي وخارجه ..على عكس ما كان متوقعا، أو على وجه ما كان متوقعاً- والله أعلم - لم تسعد نتيجة الرئيس قلوب من كان زادهم النضال ومن يستقون حياتهم من روح المقاومة والصمود، مهما كان الثمن وحجم التضحيات، بينما مضى سيادته يجاهر في المناسبات وغير المناسبات بقوله :إن أمريكا هى الدولة الوحيدة في العالم التي تملك أكثر من ٩٩٪ من أوراق القضية الفلسطينية ومشاكل منطقة الشرق الأوسط برمتها.

بعـدئذ، ألح سيادته على أمريكا أثناء اتصالـه بطواقم من أعضاء حكومتها، وفي دعواته المرسلة إليها عبر خطبه الكثيرة المذاعة وأحاديثه المنشورة، لعلهـا تضع يدها في يدينا "ثم اكتشف بعضهم أننا نحن الذين وضعنا "أيادينا في يديها هى " وظللنـا نحلم لبضـعة سنين بأن تـشرفنا بالجـلوس معهـا كشريك- حـول مائدة المفاوضات.

في التو، وعقب التوقيع على اتفاقية "كامب ديفيد "ظهرت على سطح حياتنا العربية "جبهة الرفض"، أو ما كانت تسمى "جبهة الصمود والتصدي "تزعمها قادة ليبيا والعراق وسوريا.

بعضهم استعادوا دعوات الرئيس القديمة لأمريكا ..قالوا :هذا نذير شؤم بمقدم العواصف وإثارة لكوامن الريح السموم ..سيطر على نفوسهم الخوف من أن يكون ذلك تمهيـداً وإذعاناً لمختلـف المشاريع الاستعـمارية التي ما فـتئ دعاتها يـحبكون الخطط والمؤتمرات منذ قرون خلت لكي تجهض آمال الشعوب، ويلف منطقة الشرق الأوسط سياج من ظلام القرون الوسطى.

هذه كانت مـقدمة لسنـوات الجمر والتفـتت الطاعن والمطعـون في نزيف مسـتمر

لإرهاصات الستينيات بالوحدة، بالإضافة إلى أن ذلك تراتب مع ظهور معجون صنعت مادته الخوف والارتياب في كل ما هو قادم من الخارج، وما هو كائن بين ظهرانينا في استاتيك وثبات على أرض الواقع.

عقب استغاثة الرئيس بأمريكا ودعوته لها بأن نتوكل على الله ونحط يدنا في يديها، وبدلا من أن تحصل انفراجة على شفاة مستقبل بلادنا، اكتشف الناس القابعين في قاع المجتمع أنه لا قدم لأحد منهم على أرض المستقبل وليست لهم في الحياة المجدبة ناقة ولا جمل، وأقلعت القوى النخبوية عن التفكير في الشكل الداخلي وكل ما له صله بالخارج، بينما ظلت هناك بعض الأقلام تناهض في بسالة.

ثم بدأت عمليات زحف الجموع إلى داخل الذوات ..كل ذات اهتمت بشأنها الخاص ..صنعت لنفسها سفينة توغل بها بين تضاريس أرض الواقع الجديد ونتؤات المجتمع، في نهار ولىّ مبكراً تحت جحافل فلول الظلام.

حط كل منهم على أرض جزيرة اكتشفها في أعماقه ..من قلب هذه البقع غير المأهولة بدأت في بلدنا- مرحلة العزف على وتر واحد مهترئ الأعصاب، معبأ بكل ما ليس له صلة بالحياة، وفي ارتعشات مثقلة بالهموم اعتاد الناس أن يسمعوا بين حين وآخر أصواتاً مشوبة بالأسى:

كأن المواطنون فى صدر شبابهم يتعاركون مع الواقع فى صراع نبيل ، فمن الذى أدي إلى تدهور الأمور اليوم ؟

كبحت الأهواء جماح الجموح ، وضعت الحكومة لكي تغلل كل شىء بالأصفاد قانون الطوارئ ..الشعب بتلقائية وعفوية صاغ لنفسه كما اعتاد فى المحن والأزمات قانونا استقى مواده من مواد تمكنه من التحمل عُرف بما يسمي بقانون "التكيف " .

فى ظروف من التفسخ أصابت الزلازل الاجتماعية البُنى التحتية والفوقية ، نجم

عن ذلك كله سلوكيات معطوبة ، اشترك فى صنعها الجشع والتسيب ومختلف السلوكيات المنحرفة التى روج لها بين الخاصة والعامة بشكل مغر وجذاب.

كل من كان ينحرف بالمثل والأخلاق ، بات له جمهور كبير من الجنسين يدين لنوازعه الحسية بالولاء ..ما كان يقابل بالاستهجان والاشمئناط فى سنوات ما قبل الإنفتاح ، قالوا : إنه عين التطور وصورة من مكاسب العصر التكنولوجيا. قوبل ذلك بازدياد عدد الجزر الإنعزالية ..من كان يأمل فى الغد أصبح جلّ همه أن يشيد على أنقاض الذات والمجتمع جزيرته المنبتة الصلة عن كل ما عداها بحيث لا تسع أحداً سواه ، وبالتدحرج على سلالم الهبوط ضُربت مشاعر الانتماء والهوية فى عمقها ، وأضيف إلى "قانون الطوارئ "و "قانون التكيف "قانونا ثالثا صيغت مواده من حروف "وأنا مالى " .

وتبعا لما جرى ، وقع انفجار مروع لم ينتبه له أحد فى حياتنا ، غير أن الدكتور مصطفى عكاشة رئيس الجمعية الدولية للأمراض النفسية رصد جانباً منه ، ضمنه تقريراً ذكر فيه " :أن عدد المكتئبين فى مصر عام ٢٠٠٣ وصل إلى نسبة ٨٪من عدد السكان أي ما يقرب من ٢,٥ مليون مواطن وجميعهم يفضلون الموت على ما يلقونه فى الحياة.

تحت أفق تشرئب فيه علامات الاستفهام مثل أطوال الرجال المحنية رؤوسهم على الصدور فى انكسار ..من تحت سابك الخوف من الآتي ، ومن ولد ، والذى لم يولد بعد ، وذلك الوافد فى أردية "الجات "وشرور ما يدعي "بالحداثة "، والدمار المرتدي قبعة "العولمة .. "يتساءلون فى وجل :

ماذا تعني العولمة ؟

يؤكد مفكرو الغرب الأصحاء أن "العولمة "استعمار جديد يصحح أوضاع الغرب على حساب الشعوب المحرومة من نيل حريتها بالكامل والتى طالت سنوات استنزافها فى لصوصية ممنطقة بأساليب بليغة تدعي أن لها الحق فى نهب

موارد الآخرين ، ثم الاستيلاء على كيأناتهم بالكامل .

إنها تعرف كيف تصطاد الزعماء والشعوب حتى يدخلوا من أبواب مصائدها قسراً أو عن "إقتناع "بفرادة الغرب القوي بمؤثرات التكنولوجيا الحديثة والتفكير البراجماتي "العملى "، والبعد عن أيديولوجية يرى الغرب إنه يصعب على من كانوا يقعون فى مناطق دول العالم الثالث أن يخترقوها .

يضاف إلى هؤلاء نشاط مجموعة من الأنتليجنيسا اجتهدت فى نشر فساد تلك الأيديولوجية ولم تزل تعمل داخل البلاد كوكلاء محليين، وهبوا حياتهم بكل فخار و اعتزاز لنشر الأنماط الغريبة بين نسيج هذا الوطن، وهم الذين يتدثرون برايات العولمة على اعتبار أنها شيء طبيعي وليس خارجاً عن سياق حتمية التاريخ. فى زعمهم أن الإنسان - عن طريق وسائط مكتشفاته - أصبح إلها صغيرا ، صار بمقدوره السيطرة على حركة الحياة ، كما يستطيع أن يطور الوسط الجغرافى ، خاصة وأن هذا التطور لم يعد نتاجا بحتا للطبيعة ، بل لتدخل يد الإنسان بقوة النظريات و المعادلات التى أحالت الطبيعة هي الأخرى فى أيدي الاحتكاريين إلى قطع صغيرة على رقعة الشطرنج .

يتوافق كلامهم مع نظرية التطور المادية الديالكتيكية حيث تدعي أنها تفهم التطور " : على أنه حلول الجديد محل القديم ، على أنه موت القديم ونشوء الجديد ، وهي تكشف التناقضات الداخلية التى تحدث فى الأشياء المتبدلة ، وترى فى حل هذه التناقضات وتطورها القوة الرئيسية المحركة للتطور "17".

من ثم دللوا على هذا المنطق وأكدوا أن "العولمة "ليست وليدة اليوم ، وإنما هي فى الأصل تمخضت عن " الحداثة "وأن الحداثة التى ذاع صيتها بين ظهرأنينا منذ منتصف خمسينيات القرن الماضى كمنهج له أجنحة تحلق فى سماوات الفكر والثقافة والفلسفة ، لم يجتهد أحد منهم ويضع أمامنا تفسيرا يوضح أسباب تلك الروابط الفسيولوجية والبيولوجية التى جمعت بين الاثنتين : الحداثة والعولمة فى

علاقة أشبه ما تكون بجنسية دنسة .

ليس معني ذلك أننا نرفض الحداثة أو التحديث ، وإنما ننشد منها أو من كليهما ذلك الجانب الأخلاقى والنهضوي بعيدا عن العرى والانحلال ، إذ من الضرورى ومن واقع الأصالة أن يكون التحديث فى بلادنا مصاغا بعقلية عربية إسلامية ، تنهل من إيجابيات تراثها ومخزونها الحضارى ما تزود به الواقع المعيش فى ممازجة خالصة لا تدع للقبعات فرصة لاحتواء رؤوسنا .

وبما أن العولمة هي النسخة الراديكالية من الحداثة، فإن ولادتها فى كنف الغرب دفع الولايات المتحدة الأمريكية لأن تبدو كتعبير فاضح عن مدي اتساع بطنها ورغبتها الشرسة للخروج من أحشاء مجتمعها لكي تبتلع العالم بما فى ذلك دنيا الله التى لا تحد .

من يراها فى عليائها وجبروتها لا يملك إلا أن يستحضر فى التو وجوه الآلهة القديمة حيث كانت تهبط من فوق قمة جبال الأوليمب فى انهيار عصبى نحو الهاوية .

هناك ستلقى حتفها ومصيرها الذى اختطته لنفسها ، غير أنها قبل أن تصل ووكلاؤها المحليون إلى سفح الجبل ، ذات الشروط المجحفة أنى طول عمرها بإسقاط جميع الحواجز الجمركية التى تحمي الصناعات المحلية لصالح المنتجات المتطورة للشركات متعددة الجنسيات.

وإلحاقا لسير حركة تلك الفصول المتوالية على بلداننا ، ومن خلال السياسات الليبرالية الحديثة ، تأتي العولمة لترسم صورة المستقبل الذى لا نتمناه بالعودة إلى الماضي السحيق لطغيان الرأسمالية.

فبعد انتصار حركات التحرر فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى ، وبعد أن أتسعت آفاق العدالة الاجتماعية ، ظهر العملاق الأمريكي الوليد أنذاك على رأس غلاة المستعمرين القدامي "بريطانيا ، فرنسا "ليملى على العالم بأسره شروط

الحضارى الذى ابتدعه الغرب المفترس لبناء مستقبل الإنسانية وتحقيق أنصهار مختلف الاقتصاديات القرورية والوطنية والإقليمية فى بوتقة الاقتصاد العالمي الموحد والمدعم بأركان التروستات وأسلحة رجال الحرب وتجار المخدرات وما فيا بيوت المال الصهيونية .

وظن البعد منا أنه بمعرفة الشبكات المصرفية سنصوب خطواتنا عن طريق التطور الإرتقائى كما وكيفا ، وتناسوا أنه فى ظل تفشى الفساد الاجتماعي لا يمكن تعديل المسار الإنتاجي والاقتصادي ، وأنه لو حصل مثلا تبدلات كمية فى أي قطاع فذلك لن يؤدي أبداً إلى تبدلات كيفية.

ثم يزعمون أننا نسير على درب المنفعة العامة والإصلاح الاقتصادي بخفض التعريفة الجمركية ، وحقيقة الأمر أنه إصلاح لا دخل لأحد فيه ، إذ كأن أمرا متفقا عليه سلفا مع قوي خارجية منذ خمس سنوات تقريبا تنفيذا لتوقيعنا على اتفاقية "الجات "وحول مزاعم الدولة فى تخفيض الضرائب فهي إما أن تكون حقنا مخدرة من أجل تسكين حالات الإلتهاب الاجتماعي ، أو أن يعقب ذلك إرتفاع فى ضريبة المبيعات مع أنخفاض ملموس فى نسبة الصادرات :

"أن عدم النجاح فى فتح أسواق أمام صادراتنا ستكون له عواقب وخيمة ، وسيواجه عدد كبير من المصانع الخاصة والعامة مشاكل حقيقية لا تقتصر على العاملين فى هذه المصانع ، وبالتالى قد نفقد مئات الوظائف لو لم نصل إلى حل لهذه المشكلة "20 ".

وإذا كان الكادحون تتهددهم مخاطر المجاعة وفقد أعمالهم ، فمن الضرورى خدمة لوجة النظر الإصلاحية أن يستشعر الرأسماليون والمستثمرون هذه الضرورة لأن المجتمع يتكون من عضوية هؤلاء، وينبغي عليهم ألا يكون أنتماءهم موزعا بين مصالحهم فقط .

وأملا فى الخروج من عنق الزجاجة توهم المسئولون أنهم عثروا على علاج

آلية السوق ، وأن يقتصر دور حكومات العالم على الإلتزام بالانضباط و "حراسة نظامها". في عنفوان العنجهية والغطرسة ، تدير الولايات المتحدة عجلة الزمن صوب البدايات الأولى للنظام الرأسمالي إبان مرحلة الثورة الصناعية "١٨٥٠":

"حيث تبدو قتامة المستقبل الذى سيكون صورة من الماضى المتوحش للرأسمالية فى فجر شبابها إذا ما سارت الأمور على منوالها الراهن ".

إزاء الثالوث الشرير :الحداثة ..الجات ..العولمة ، تمخض عن حلقات السلسلة ، تهميش الثقافة الوطنية ..إسقاط الهوية ..التدخل الصارم فى شؤون دول العالم بدعوي المحافظة على حقوق المرأة ، وحماية حرية التعبير والديمقراطية

يضاف إلى ذلك هيمنة رأس المال ، وباتساع رقعة السيطرة والاستثمار ظهر ما يسمي "بأممية رأس المال "ليباشر بمفرده فرض الشروط ، والتهديد بنقل أمواله إلى مناطق أخرى إذا دعت الحاجة ، أو حين لم تستجب الحكومات لمطالبه ، أو تعبر عن رغبته فى إصدار القوانين التى تحافظ على زيادة نموه .

"ومنها منحه تنازلات ضريبية تقديم مشروعات البنية التحتية له مجانا .إلغاء وتعديل التشريعات التى كانت تحقق بعض المكاسب للعمال والطبقة الوسطي ، مثل قوانين الحد الأدني للأجور ومشروع الضمأن الاجتماعي والصحي ، وإعانات البطالة ، بما يقلل له المساهمات المالية فى هذه الأمور ، وخصخصة المشروعات العامة ، و تحويل كثير من الخدمات العامة التى كانت تقوم بها الحكومات لكي يضطلع بها القطاع الخاص وإضفاء الطابع التجارى عليها ."19" .

تزامنت هذه المطالب مع ما كان يروج له العولميون بأن أممية رأس المال هي التعبير الوحيد عن قوة الشبكات المصرفية التى يمكنها لعب دور تقوده الأهداف والمقاصد الموجهة للتكييف وفق متطلبات الإنسان ، استجابة للإرادة الحرة فى عمليات مقننة تستهدف العولمي للمحافظة على التقسيم الطبقى ، وزيادة اتساع الهوة بين المدينة والقرية ، وفى نفس الوقت تدعي أنها المنوطة بإبراز النموذج

هذا قبل توقيع الحكومة على الاتفاقية ، ولكن ما حدث أن الحكومة أتخذت قرارا فرديا بالتوقيع على الاتفاقية" .

ويضيف سكرتير عام مساعد حزب الوفد :

"يبدو أن الحكومة لا تريد إجراء أي مناقشات حول الاتفاقية ، ولهذا اتخذت قراراها بالتوقيع عليها ورأت أنه من الأفضل ألا يناقشها مجلس الشعب هو الآخر ، وبحثت عن حيلة لتحقيق غرضها ووجدت ضالتها فى حكاية أنها " بروتوكول "وليست اتفاقية ، وبالتالى لا يحق للمجلس مناقشتها !! .

ويعلق أعضاء المعارضة فى حزب الوفد " :أن مجلس الشعب من حقه مناقشة أي شئ سواء كانت "الكويز "إتفاقية أو مجرد بروتوكول تطبيقى وقعه أحد الوزراء ، وفى كلتا الحالتين يحق للمجلس أن يسحب الثقة من الوزير الذى وقعها إذا رأي المجلس أنها اتفاقية تضر بالاقتصاد المصرى .

مدن المناطق الصناعية المؤهلة

مصانع المناطق الصناعية المؤهلة

المناطق الصناعية المؤهلة

العاشر من رمضان

١٥ مايو "حلوان "

جنوب الجيزة

شبرا الخيمة

مدينة نصر

قطن

ديس

أي .تى .سي

سمير فلاتلس

جديد للأزمة فى عـدة مناطق قالوا أنها ستحـقق التنمية وتهيئ فـرص العمل أمام جيوش العاطلين ، وتحت ضواغط الرغبة فى الأنتعاش ، ربما سامحهم الله كانوا لا يدركون أنهم يدفعون بالبلاد إلى غرف الإنعاش ، حين بسطوا الأيدي فى وجه أمريكا واسرائيل ، وكأنهم يعالجون كسوفهم بقولهم : " الإخوة العرب سبقونا فى هذا الاتجاه " .

عند ذلك ما كذبوا ، إذ سـبق لأمريكا أن وقعت عدة اتفاقيـات لإقامة مناطق حرة مع الأردن الشـقيق والمغرب الشـقيق والبحريـن الشقيق وإسرائيـل ابنة العم، وتسـاءل "المصلـحون : "لماذا تقوم الدنيا ولم تقعـد حين وقعت مصر وإسرائيل وأمريكا على بنـود اتفاقية "الكـويز؟"، ولم يقولوا فى بيـاناتهم التى أصدروها أنهـاجاءت كتـعبيـر صريح علـى التوافق مع الـنموذج الاقـتصادي الذى حـددته الولايات المتحدة الأمريكية .

لكنهم قالوا أن هذه الاتفاقية تخول لإسـرائيل أن تشارك فى المناطق الصناعية المتفق عليها ، على أن يدخل منتجات المصانع المصرية مكون إسرائيلى بنسبة معينة كشرط لدخول هذه المنتجات إلى الولايات المتحدة الأمريكية دون رسوم جمركية .

والواقع أن الجدل حـول هذه الاتفاقيـة بلغ مداه على المـستوي الجمـاهيرى ، وندد سكرتير عام مساعد حزب الوفد بها ، قائلا :" هي تؤكد على استهانة النظام الحاكم بالشعب المصرى ، الذى هو أساسا مصدر السلطات " .

ثم يستـطرد قائلا : " الحكومة المصـرية كانت ترفض "الكـويز "منذ عـدة سنوات ، وفجأة إنقلب الحال ، ووافقت علـيها بدون قيد أو شرط ، حدث ذلك دون أن تكشف الحكومـة للشعب ..لماذا رفضتها فى البـداية ، ولماذا وافقت عليها الآن ؟

كانت أبسقط مبادئ الديموقراطية والشفافية تقتضى طرح الاتفاقية للنقاش على الرأي العام ومؤسسات المجتمع المدني ومجلس الشعب ..كأن المفروض أن يحدث

دلتا

القاهرة الكبرى

العامرية "برج العرب "

الإسكندرية

الإسكندرية

المدينة الصناعية ببورسعيد

منطقة قناة السويس

قوى المعارضة المصرية اعتبرت "الكويز "وجها من أشكال إشاعة الفساد وأن الحكومة تمنح إسرائيل بين وقت وآخر هدايا ثمينة دون أن يستفيد الشعب من ورائها ، أما اسرائيل فقد رددت فى فرح أن ذوبأن الجليد مع مصر سوف يفتح الباب أمام إقامة علاقات بينها وبين عشر دول عربية :

بينما أصرت قوي المعارضة فى مصر على موقفها مؤكدة :

١ -أن "الكويز "إندفاع فى طريق التطبيع بغير مقابل ، فالصهيونية ما زالت عدوانية عنصرية توسعية .

٢ - تمرير "الكويز "بهذا الأسلوب إزدراء للرأي العام ولمجلس الشعب، فلم يسمح لهما بوقت كاف لإبداء الرأي .

٣ - الكويز خطر جسيم على اقتصاد مصر العليل ، فهيكلنا الاقتصادي غير مهيأ للشراكة مع الصهيونية المتوثبة المقتدرة المتجبرة ، فالمريض بالأنيميا لا يدخل الحلبة فى مواجهة الأصحاء المتدربين المتمرسين .

واشيع حول الاتفاقية أنه تم التوقيع عليها مثل عقد زواج عرفى بين اقتصاد مصر واقتصاد اسرائيل كشرط لاستدرار عطف أمريكا علينا ، على أن تعقد اللجنة المشتركة بين مصر واسرائيل اجتماعاتها كل ثلاثة شهور ، مرة فى القاهرة ومرة فى "القدس "، مع عدم الأخذ فى الاعتبار مشاعر الشعوب العربية والإسلامية ،

وكان ذلك بمثابة الإعتراف بوجود اسرائيل فى القدس ، واتخاذها عاصمة لها .

إزاء الخوف الذى إعترى نفوس المصريين حاول رشيد محمد رشيد وزير التجارة و الاقتصاد إزالة ما غمض عن الأفهام موضحا أن مصر ستستفيد بموجب الاتفاقية من تصدير جميع المنتجات الكيماوية والمنسوجات والملابس الجاهزة ، وغيرها .

وضرب وزير التجارة للناس مثلا بالأردن ، واستعمل تعبيراً جاء على لسان وزير خارجيتها الدكتور الهنداوي بأن قيمة صادرات المناطق المؤهلة ارتفع من ٩ ملايين دولار عام ١٩٩٩ إلى ٩٠٠ مليون دولار عام ٢٠٠٤ بمعدل زيادة سنوية بلغ ٣٠ بالمائة .

المسولون فى الحكومة عقب التوقيع قالوا :أن الطرفين المصري والإسرائيلى قد استعانا بما لدي كل منهما من الشفافية وهما يوقعأن على البروتوكول الرسمي بين حكوميتهما ثم راحوا يزفون للشعب المصرى أرقاما لا تزال أحبارها تسيل على صدر الإتفاقية ، سوف يصدرون سنويا من المنسوجات والملابس الجاهزة إلى أمريكا ما قيمته ٧٥٠ مليون دولار سنويا ، وستزداد المبالغ الدولارية كلما ارتفعت نسبة التصدير .

ويبدو أن مشاعر السخط وعدم الرضى التى جرفت المواطنين دفعت الدكتور على جمعه مفتي الجمهورية لأن يوضح رأي الشريعة الإسلامية فى التعامل مع الصهاينة أكد على صفحات جريدة الوفد يوم ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٤ " :أن الشريعة الإسلامية لا تحرم أو ترفض التعاون مع غير المسلمين "واستشهد فضيلته بإتفاقية "الكويز "قائلا " :أنها مباحة فى أصل الشرع وأن ما يجب فعله هو تقييمها من حيث جلب المنافع أو المفاسد ، فمن يقدم الأولى يقبلها ومن يقدم الأخرى يرفضها .

يشهد الواقع أن التفاسير التى تمسك العصا من وسطها ومن تربط فى جملة

واحدة بين القبول والرفض تهيئ لإسرائيل مساحة ترمح فيها بخيولها وأن المراوحة بين هذا وذاك لا يخدم في معظم الأحوال إلا سياسية الآخر .

غير أن فضيلة المفتي سارع موضحا جانبا آخر من جوانب التفسير: " إذا تبين أن الكويز غير صالحة نخرج منها ، لأنه ليس هناك إلزام في الاتفاقيات الدولية إلا بقدر الالتزام الأخلاقي " .

بعد عدة أيام من حديث المفتي نشرت جريدة الأهرام يوم ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٤ حديثا لوزير التجارة الخارجية والصناعة ، قال فيه :" لابد من الإشارة إلى أن توقيع هذا البروتوكول على الرغم من فوائده الاقتصادية فإنه يتعارض مع مشاعر وعواطف كل مصري ، وهذه حقيقة لا يمكن أن ننكرها فإن عدم التوقيع ستكون تكلفته مرتفعة على صادرات مصر من المنسوجات والملابس الجاهزة ، وعلى الصناعة ذاتها وأخيرا العمالة " .

وبلا حياء وانتماء نشر أصحاب الأقلام الأنهزامية والاستسلامية أن علاقة مصر الخارجية بأمريكا وإسرائيل تشكل طوق النجاة للمصريين ، وأنهم أصحاب الأقلام إياها لن يسمحوا أبدا للعلاقات العربية العربية أن تؤثر سلباً على علاقة مصر بإسرائيل ، وباتت إسرائيل أولا وقبل الجميع .

ولا ندري كيف غاب عن فطنة هؤلاء نبرة التفاؤل التي استولت على "آرييل شارون "عقب التوقيع على اتفاقية "الكويز "مؤكداً " إنها بداية لاتفاقيات ذات أفق أوسع "، فهلا تساؤلوا عن ما وراء عبارة شارون " أن هذه الاتفاقية ستكون البداية الصحيحة لعلاقة متينة تربط بين مصر وإسرائيل وأمريكا ..؟ " .

لماذا لم يتوقعوا أن تكون هذه الاتفاقية نواة للتحالف الموجه مستقبلا ضد بلد ليست على وفاق مع أمريكا مثل إيران ، وأن تركيا قد تكون مرشحة للأنضمام إليه ؟ ..كل شيء ممكن في لعبة السياسة والمصلحة .

هل غاب عن فطنتهم أن إسرائيل وحسب ما تقتضيه لعبة السياسة في حياتها

أو بظهور مستجدات على الساحة الدولية ، يمكن أن تقلب لنا ظهر المحن وتهدد مثلا بسحب نسبة الـ ١١,٥٪ قيمة مساهمتها حسب ما نصت عليه الاتفاقية ، كأداة ضغط لانتزاع قرار ما ، أو لتحجيم دورنا فى اتخاذ موقف ما لصالحنا أو لمصلحة أمتنا العربية أن كنا لم ننسها بعدُ ؟ .

لم تُفضْ سيرة "الكويز "ويهدأ من حولها الجدل إلا حين أزال الرئيس حسني مبارك موقف التردد الذى كأن يحكم تصرفات بعض الوزراء ، وأوضح : "فى ضوء حكومة جديدة تتجه نحو الإصلاح ، وأنها ستعمل على تنفيذ كل المطالب ، وأن هذه المطالب لا تصب فى صالح أمريكا بقدر ما هي مطلوبة للمساعدة فى اندماج الاقتصاد المصرى مع الاقتصاد العالمي" .

السعي للذوبان الاقتصادي فى كيان الآخر العتيد ، جعل الأنظار تتجه بالشفقة على اقتصادنا المريض وما يلاقيه من منافسة الأصحاء فى دول كانت معدلات التنمية فيها مجتمعة أقل من حجم مواردنا ، لكنها استطاعت بإخلاص أبنائها أن تقيم صناعتها الوطنية ، وأن تنتج سلعا رخيصة تغرق بها أسواق العالم، من بينها دول عربية صغيرة، ودول آسيوية .

إزاء عوامل التفسخ التى تدب فى قطاع الاستثمار والمال تظهر بحدة وشراسة قوة الشبكات الاقتصادية الغربية ، وانعقاد القيادة لأمريكا ، إذ إن دخلها القومي يعطي لها الحق فى حمل هذا اللقب ، حيث بلغ عام ١٩٩٩ (8683.4)مليار أي أكثر من دخل فرنسا الذى يبلغ (1346.06)مليار دولار بحوالى سبع مرات . وتشير التقارير الإحصائية التى تنشرها المراكز البحثية والدراسات الاستراتيجية إلى أن الولايات المتحدة تأتي على رأس الكشوف المصدرة للأسلحة فى المرتبة الأولى . يؤكد معهد أبحاث السلام فى استكهولم إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تأتي على قائمة الدول المصدرة للأسلحة على مستوي العالم فى الفترة ما بين ١٩٩٨ و٢٠٠٢ حيث بلغت مبيعاتها ٣٧,٧ مليار دولار ، وجاءت روسيا فى المركز

الثاني ، و بلغت مبيعاتها فى نفس الفترة ٢٠ مليار دولار ثم ألمانيا ٤,٩ مليار دولار ، تليها بريطانيا ٤,٨ مليار دولار ، ثم أوكرانيا ٢,٦ مليار دولار .

ولم يذكر التقرير أن الأسلحة الأمريكية المتقدمة صدرت إلى دول من صنائعها ..إسرائيل ، تايون ، وبأسعار وهمية أو رمزية .

ولربما تبدو الإجابة فى شكلها المعمم لا تمت بصلة وثيقة إلى فحوي السؤال ، حين تطال أعناق بعض الكبار وهم يخبون فى هرولة بين أروقة البيت الأبيض إبراماً لعقد صفقة تدفع الشعوب فاتورتها ، وقد يكون الهدف من وراء الزيارة التوقيع على عقود لتنمية المشاريع الاستهلاكية بقروض مدفوعة الفوائد سلفا من بيوت المال اليهودية .

أياً كان الأمر فإن الاقتراض لحساب مشاريعنا من جنس هدفه الاستراتيجي العمل على إمحاء هويتنا العربية لن ينعش كما يشيع بعضهم الاقتصاد ، وحتى لو نجح المهتمون فى إقامة عشرات المدن السياحية والمنتجعات ، فإن التعويل عليها لن يبعث سوي على المزيد من الانحدار ، ماديا ، وأخلاقياً ، لأن المال الذى يأتي من هذا الجانب يكون ملوثاً بآثام الخمور والفجور ، والله سبحانه وتعالى لا يبارك للمطففين ومن عفروا الجباه وأفخاذ النساء بالرذائل.

غير أن هؤلاء ومن على شاكلتهم ، قد سال لعابهم عندما طالعوا أرقام المليارات التى حصلت عليها بعض الدول الشقيقة ، ودول أخرى شرق أوسطية ، وفى مسعاهم للأخذ بيد الأوضاع المتعثرة ، ولكي تنتعش خزينة الدولة ، رأيناهم يتخذون من بعض الدول المجاورة مثلا ، ثم راحوا يلحون فى الأخذ بأساليبها السياحية المغرية حتى تتفوق عليها خاصة وأن لدينا عبقرية المكان ..تراث فرعوني.. قبطي ..إسلامي ..يكفى أننا نملك ثلثى الحضارة الإنسانية ..فلماذا لا نتحرك بعقلية متحررة ونحن نملك من أرصدة الطبيعة والمناخ ما يؤهلنا لأن يكون من نصيبنا مليارات الدولارات خدمة لنهضة وطننا ؟ !

هذا النوع من "المصلحين "فى الأرض لابد أن يتميزوا بالجدية وهم منهمكون فى تنفيذ مشروعاتهم التى تتزامن مع تطبيق بنود المؤامرة الأمريكية الشيطانية للسيطرة على العالم، وهي مكونة من عدة تكتيكات ..تكتيك التحرك الاقتصادي لإغراق أي دولة فى الديون ..تاكتيك لإقامة نوع من المشاريع بشروط مجحفة وقبل أن تدر عائدا تكون قد انهارت ، وإذا فشل هذا التاكتيك ففى جعبة المؤامرة الخارجية المزيد، وبسرعة يأتي التكتيك الثالث بدخول نوعيات من البشر ، وقد أطلقوا على هؤلاء لفظ "الضباع "وهم من فريق المخابرات التى يتم تحريكها فى أي دولة لم تُجد المحاولات السابقة فى إخضاعها .

بظهور هؤلاء على السطح ، تسقط حكومات ..يتم اغتيال رؤساء ..ينتشر الدمار والحرائق ، تقع مآس ، لا تعد ولا تحصى ، ويمكن لمن شاء أن يعرف المزيد من مطالعة كتاب "اعترافات سفاح اقتصادي "للكاتب "بيركنز "وهو يذكرنا للوهلة الأولى بنهج "بروتوكولات حكماء صهيون" .

من قلب المؤامرات التى تحاك ضد أمتنا العربية ، تطاردنا أصوات من يطلبوا إلينا الاعتراف "بالآخر .. "ولأجل سواد عيون الآخر ، أندفعنا لإقناعه ولعله يرضى عنا بنفى ذواتنا ..أوقفنا مشيئة أمتنا رهنا لإشارته ..عدنا القهقرى لإرث السبعينات من القرن الماضى ..قلنا أنه حلاَّل العسير .

ألم يكن لديه حل مشكلاتنا بنسبة ٩٩٪ ؟ أليس هو الوحيد القادر على لىٍّ عنق إسرائيل وكف يدها عن الشعوب العربية بالأذى ؟ ...وأخيرا ، وربما قبل أي شى ، ..أنه يملك الأموال والأسلحة اللوجستية وله مواقع عديدة فى عطارد بعد أن استولى على كون بأكمله فوق سطح القمر .

ثم أليس لدينا والحمد لله على السراء والضراء لفيف من الكتبة ومن يبرعون فى تسويغ هذه المواد وإعادة دفعها فى صحائف بين أيدي القراء ونشرها كدعوة مخلصة تقتضى من الجميع أن يضعوا أياديهم فى يدي الولايات المتحدة الأمريكية، ولا نفكر فى الاعتماد على الله ثم على أنفسنا قبل أن نشوف ما تمليه علينا عظمتها ، خاصة وأنها أصبحت الأمبراطورية المهيمنة والتى بيدها كل الأقيسة والموازين ؟

من يملك الأقيسة الصحيحة للحسابات مع الإسلام غيرها ؟!! أن لديها إسلاما مبنيا على ما أطلقوا عليه كلمة "الطاعة "وإسلام آخر يتسم بالتمرد ولا يقبل إلا الانقياد لله طاعة لأوامره ورضوخاً لنواهيه ، وهو المتهم بالتعصب والتخلف ، وفى كل الأوقات تلحق به تهمة الإرهاب .

ولكم جاهدت مصر حفظها الله حتى لا تجرفها المزلقانات فى أوحال هذه المهاوى ، ومع ذلك شُنت ضدها الحملات ولا تزال ضارية وأشعل المغرضون أوار الفتنة الطائفية بين القبط والمسلمين خلال تسعينات القرن الماضى ، ودفع أبناءها مسلمون ومسيحيون الثمن فادحاً .

قبل ذلك بكثير ، وبعد ذلك لا يمر عام عليها إلا وتتعرض فيه لآلام الضغوط بورقة المعونة الخارجية حتى تحصل أمريكا من ورائها على مكاسب لصالح عزيزتها إسرائيل.

وكدأب مصر وحكامها ، يعطي الجميع ببذخ وسخاء دون مقابل ، وحتى بعد أن استعمرت أمريكا العراق وكنا نراها تسعي لإحلال أنظمة الطوائف كبديل عن مركزية الدولة وتشجيعها لأنظمة العشائر بمنطقة الشرق الأوسط ، وإعطاء شيوخها اهتماما لم يقل أحد أنهم لا يستحقونه ، ربما لأن القصد من ورائه إبراز زعامات جديدة لكي تقلص دور مصر ، وكنا مؤدبين مع أمريكا للغاية ولم نقل لها ثلث الثلاثة كم .

وأصبح العالم الذى كنا نُملى عليه كلمة العرب ، ونشارك فى رسم مستقبله منذ مؤتمر باندونج عام ١٩٥٤ مأذونا له بتفكيك وحدتها الإقليمية ، وتعاطي الكراهية ضدها ، والانتصار لوجهه النظر التى تحبذ الابتعاد عنها ، وتغذيه روح العداء ضدها ، مع التسليم بإعطاء زعامة منطقة الشرق الأوسط لكل من إسرائيل وتركيا .

لكن كان هناك واقعا يجيش صدره ويتململ بالأسئلة :إلى متي يستمد هذا المسلسل التصفوي لكل الأمال التى ملأت صدورنا بشذى عروبتنا ؟ ..فى الهزيع الأخير من ذلك الليل ، هبت علينا عواصف الشمال مفعمة بأنفاس "بوش"

الثلجية ..هدفها الوحيد أن تطيح بأوراق شجرتنا الخضراء .

أن كل شيء في الحياة يتمخض عن معلول وعلة ..هناك سببية في حياتنا تجعلنا نرقى لمستوي معرفة بدايتها ، وإذا كان ذلك صحيحا فهل لتلك الرياح السموم نهاية ؟ .

دائما كل المشاكل التى تعرقل خطواتنا تقف وراءها أمريكا واسرائيل ..آخر المؤامرات التى تحاك ضدنا محاولة الولايات المتحدة الأمريكية تصدير النظام العولمي إلينا .

ولكم تساءل الخاصة والعامة عن فحوي هذه "العولمة "بالاستقصاء والبحث وجدنا أن أول ظهور لها يعود إلى مجد الحضارة الإسلامية ، حيث دانت معظم بلدان إفريقيا وأطراف من أوروبا بالدين الإسلامي ، واغتنت الحياة الاجتماعية بالتجارة والتجار الذين كان يهتم معظمهم بالعلم والمعرفة ، وتلاقحت الثقافة العربية بثقافات العالم وعلومه قبل أن تتراجع فى القرن الخامس الهجري .

فهل يمكن اعتبار الواقع الراهن وما يجرى فى حلبة الصراع الدولى إعادة للمنتوج الحضارى القديم ، وتقديمه اليوم فى ثوبه الجديد ؟

دورة الحياة الأمريكية تهتم منذ عدة سنوات بصناعة أقراص الكراهية و العداء لكل ما هو إسلامي وإنساني ، وبالتالى ، فهي ترى من مصلحتها مواجهة المسلمين والقضاء عليهم باعتبارهم بقايا من عصور التخلف ، وأنهم قوي إرهابية ومعادون للتقدم الحضارى.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنها أوجدت الحشد الكافى من كُتبجية و مفكرين دفعتهم للندوات والمؤتمرات لكي يطرحوا تنظيرا غير صادق عن الإسلام ، من ذلك ما جمّعه "برنارد لويس "ووضعه فى كتاب تحت عنوان "الأصولية الإسلامية "والذى حصل على إحدي الجوائز ، رغم أنه لم يخرج على إطار "صموئيل هنتنغتون "فى مؤلفه "صدام الحضارات "والزعم بأن المسلمين يمثلون تهديداً ثلاثيا للحضارة الغربية سياسيا ، وحضاريا ، وسكانيا.

ونحن نعرف الحقيقة الخبيثة ، وما لم يقله كتاب الغرب بصدق لذويهم فى

فضائل أمتنا العربية وثقافتها التى لا تملك أمريكا صفحة واحدة منها ، و لذلك فإنهم يروجون بأن الصراع فى عالم اليوم لن يكون بين طبقات اجتماعية أو جماعات أخرى محددة إقتصاديا "ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة " .

ويبدو أن واقع ما بعد الحرب الباردة بين الغرب والشرق أفضى بالولايات المتحدة الأمريكية أن تتبني سياسة تختلف عن سياسة الصراع النمطي القديم ، حيث أصبحت ترى أن البلدان الواقعة تحت مستوي خط الفقر تكمن قواها بين سطور ثقافة تتبلور فى شكل ايديولوجية معادية .

إلى جانب ذلك ، فإنها تأخذ الجانب الآخر من ثقافتنا بعين الاعتبار والحذر، تلك المهتمة بتجريد الإنسان من قيمه ، وما يكشف من خلالها عن عدم ثقته فى نفسه وقدراته ، تهتم بثقافتنا الواقفة عند الجانب الآخر لصراع الأفكار عند العرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ليتغذى العالم - مع التكثيف - بأفكاره عبر الكتاب .. الإذاعة المسموعة والمرئية حتى يضرب اللغات الوطنية ويمحو الهوية، ولقد سبق لأوروبا قبل أمريكا ممارسة هذا النوع من الغزو الفكري إلى درجة أنها حولت طاقة الثقافة إلى أيديولوجية كماأنهم يهتمون بنوع الثقافة التي تعبر عن انصراف الناس عن الحياة العامة لتصل بهم إلى مشارف النهار هروبا من أعمال ورثة الاستعمار وقهر الدولة العامة لخوف ، أو ليأس ، أو أمل يدفع الجماهير إلى حالة من الكمون والترقب لمقدم البطل الذى يكون بضعة من جزيئاتهم المفتتة .

كما تتابع أجهزة الولايات المتحدة المعنية بعين الاعتبار الكم الثقافى العربى الهادف إلى بلورة عملية التفاعل بين وضعية الفرد الاجتماعية والاقتصادية وبين نفسيته التى تعيش إحباطات هذه الوضعية :

"فكل ابتكار ثقافى يمكن أن يتحول إلى أيديولوجيات ، إذا ما اتخذ الابتكار وما يفرزه من نتائج نموذجا لتخطيط مسيرة المجتمع للتخلص من الاحباطات ، وبالتالى فإن التوليد الأيديولوجي قائم ما دامت صيرورة الإنسان قائمة (21) .

ولقد سبق لأوروبا ـ قبل أمريكا ـ ممارسة هذا النوع من الغزو الفكرى والإعلامي حيث حولت طاقة الثقافة إلى أيديولوجية عبرت عنها الحملات الصليبية التى ما فتئ الغرب يشنها على العرب والمسلمين .

ولكي يتضح لنا ذلك جيدا لابد أن نلتفت إلى السياق الأيديولوجي والسياسى للثورة الفرنسية داخل أراضيها وداخل حدود أوروبا والتركيز على ثلاث فاعليات أيديولوجية تكوينية للجمهورية ، وهي لا تزال حتى يومنا هذا تؤثر فى علاقة الدولة الفرنسية بالعالم :

"أولى هذه الفاعليات تستند إلى مفهوم الإخاء باعتباره الدافع العقائدي الموحد للثورة ذاتها ، وينبع من مفهوم العالمية ، ثانية :هذه الفاعليات تستند إلى مفهوم العالمية أي التوجه العالمي للثورة وإمكانية تطبيق الشكل الجمهوري فى الحكم على العالم بأسره حتى وإن اقتضى ذلك استخدام القوة والقسر ، آخر هذه الفاعليات تستند إلى فكرة التنوير أي إعمال العقل والعقلانية وتبني العلمانية ، كنهج سياسى تكويني للدولة."22" .

ومن الأفكار العولمية تلك التى أطلق عليها بعض الأدعياء بأنها "تنويرية " عقب الحملة الفرنسية على مصر واحتلال أراضيها ، حين وضع نابليون بونابرت أثناء اقامته فى مصرقانوناً جديداً يحكم به المسلمين ، وهو مستمد من التشريع المدني الفرنسى ، الشيء الوحيد الذى تركه للمسلمين من أمور دينهم أنه :

"حصر تشريع الله فى أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وكانت تلك هي المرة الأولى التى يحكمهم فيها قانون غير قانون الله ، يضعه وينفذه قوم غير المسلمين ، لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضى الإسلامية أحياناً، ويبقون فى بعض الأحيان سنوات ، بل وصل بهم الأمر قبيل صلاح الدين أن يقيموا لهم دويلات على شاطئ البحر الأبيض فى بلاد الشام ، ولكنهم لم يجرؤوا قط فى أية مرة أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين ، فقد كانوا فى كل مرة غزاة نهبوا قطعة من الأرض ولم يكونوا قط دولة حاكمة مسيطرة فى الأرض ، وفى هذه المرة كانوا لأول مرة دولة حاكمة فى أرض

الإسلام بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة وذوّبوها فى ميدان القتال ."23".

وحسبما نرى ، فإن التوجه الصليبى الجديد بقيادة أمريكا لا يختلف فى شكله ومضامينه عن أهداف فرنسا ، فتلك صليبية وهذه صليبية ، كأن اليوم أشبه بالبارحة ، الفرنسيون دخلوا بلاد المسلمين رافعين شعارات :الحرية ..الإخاء .. المساواة ، والولايات المتحدة الأمريكية تغزو بلاد المسلمين فى العصر الراهن مبشرة بعالم جديد نصراني يقوم على التحالف مع اليهود ، وبالسمات العقائدية المتشحة بأردية الديمقراطية ..حرية المرأة ..تغيير مناهج التعليم ...إلخ ، تعبر عن أغراض العولمة على اعتبار أنها قاعدة الانطلاق فى حقبة صراع الحضارات ، وأنها قدر لا مفر منه !.

إذن ، فمن معطف الأيديولوجية الثقافية والفكرية تبلورت أيديولوجية الحملات الصليبية ، وبالنسبة لنابليون بونابرت تهيأت الفرصة أمامه وهو رجل المتناقضات الكثيرة لأن يتصالح مع الكنيسة ، بل وأن يتم تتويجه إمبراطورا فى كنيسة نوتردام .

الأمر جد مختلف تماما مع " بوش الابن " فإنه بعدما أقلع عن شرب الخمر منذ أكثر من سبعة عشر عاما وهو محاط برعاية المسيحيين الجدد ، فهو البوق البار لهم والمعبر عن مشروعهم العولمي حتى تنسحب الحضارة الغربية على كافة الأمم.

فما بين "نابليون "و "بوش "، وما قبل هذا وذاك من حملات صليبية استهدفت بلاد المسلمين يجعلنا نقول فى غرابة : إن التاريخ يعيد نفسه معنا بنفس التفاصيل مع اختلاف طفيف فى الملامح ، فالحملة الصليبية التى احتلت مصر بقيادة نابليون وجدت عند مثقفى ذاك الزمان استحسانا ، وكان على رأس المشايعين رفاعه رافع الطهطاوي معبرا بطلاقة تشوبها لكنة أجنبية عن مدي إيمانه العميق بالفكر الأوروبى ، وما من مناسبة مرت إلا وأبدي فيها الإعجاب الشديد بأفكار الحرية والمساواة وتبني أفكار نابليون أثناء إقامته فى مصر وتشبعه بالفكر الماسوني :

"وتبع الطهطاوي كثيرون ممن واصلوا الدعوة إلى الوطنية وإلى ضرورة الاتجاه الكامل إلى الحضارة الغربية من أمثال (على مبارك) و(إبراهيم أدهم) و (صلاح

مـجـدي) و(محمد عثـمان جلال) و (عبد الله أبو السعـود) و (عبد الله فكرى) وغـيرهـم ، وواصل الجمـيع الهـجوم عـلى التـيار الإسـلامي من كـافة الجوانب ."24" .

واليوم يأتي من يشايعون "عولمة "بوش ، يروجون من أجل دعمها لفكرة أن العالم أصبح قرية كونية صغيرة وأننـا شئنا أو لم نشأ نرى الحضارة الغربية تمضى إلى غاياتها بخطي الاعتداد والثقة .

لنفترض جدلاً أن ذلك أمر صحيح وملموس ، ألا يكفى ذلك الزعم أن يضع عيوننـا على المعارف التى ربما تكون بعـض معالمها بهتت فـى أذهان الناس ، على الرغم من أنها مطـروحة بأسلوب مغر وموضوعـي حيث تؤكد :أن كل حـضارة عاشتها الإنسانية حملت فى خلاياها بذور فنائها ؟

أليس هذا حدث بالفعل مع حضارة الرومان والفرس ؟

لا يهتم الشعب الأمريكي بما يجرى خـارج حدود الولايات المتحدة، الاهتمام بتنمـية ذواتهم والغرق فى بـذخ العيش حولهم إلـى عجائن رخوة تتـشكل بإرادة الحزبـين اللذين يتنـاوبان الحكم فى البـلاد، الجمهـورى والديمقراطـي ، ومن ثم فالـقرارات الاستـراتيجيـة فى حقـبة ما سـوف تصدر سواء كـان يحكم أمـريكا الجمهوريون أم الديمقراطيون :

"فهـذا بالطبع لا ينفـى وجود خلافات وتـناقضات ثـأنوية بين الجمـهوريين والديمقراطيين ، أو بين قوي المجتمع الأمريكي ، ولا يـنفى امكانية الاستفادة منها وبالتالى فمن الصـحيح والصحي رصد فهم هذه التناقضات وفـهمها شريطة أن ندرك أولا وأخيرا أنها تناقضات ثانوية ."25" .

ومن المتناقضات فى حياة شعب الإمبـراطورية الأمريكية ، ومع الادعاء بأنه شعب يقدس الحرية ، إلا أنه بين وقت وآخر يتنازل بإرادته أو تسلب منه على غير إرادته جزء من الحرية ، وإذا كانوا تنازلوا عن حـرياتهم فإن الرومانيين فى دولة الأباطرة لم ينسوا مشاعـر الأمهات اللاتي ولدتهم أحراراً ولم يسقطوا مـن ذاكرتهم تعاليم "هليفـيديوس "و "تراسـيا "و "تاسيـتس "و "بليـني "و "كـاتو "و "

شيشرون "كما تعلموا أن يزدروا فى أعماقهم هؤلاء الطغاة الذين عبدوهم عبادة منافقة .

واليوم تعمق الولايات المتحدة خطواتها على درب الحملات الصليبية التي غزت بلاد المسلمين ابتداء من الحملات الأولى فى ١٠٩٦ م إلى استيلائها على العراق عام ٢٠٠٣ ، مع ارتفاع صوتها بأقوال الخداع المعجونة بمسحة أخلاقية من حضارتها الزائفة ، وهي فى ذات الوقت تداهم بقواتها المستشفيات فى "الفلوجة" وتعتقل المرضى وتلقى بالقنابل جوا وبرا فى عشوائية لا تفرق بين طفل وشيخ .

تقول صحيفة "كريستان سايتس مونيتور "الأمريكية نقلا عن مراسلها المرافق لإحدي وحدات مشاة البحرية الأمريكية " : إن قوات الاحتلال تتعامل مع كل سيارة على أنها سيارة مفخخة وتتعامل مع كل شخص على أنه عدو محتمل ..بل أن المهاجمين يطلقون النار على الكلاب ويقتلونها خشية أن تكون حاملة لشحنات متفجرة .

نفس السيناريو ، سبقتها إسرائيل فى تطبيقه على الشعب الفلسطيني ، ولا يفوتها أن تستفيد من نتائجه خلال مرحلة الإعداد لتجهيز حملة صليبية ضد كلا من سوريا و إيران ، ولن تعدم أي مبرر لشن الهجمات عليهما ، إذ سبق أن قالت للعالم أنها دخلت العراق لتحرير شعبها من ديكتاتورية صدام وفلول طالبان والقاعدة ، ولكن مهما قالت فإن حبال الكذب قصيرة وإن جريمة واحدة ارتكبها جنودها فى أفغانستان والعراق لتضعها فى خانة الدولة الإرهابية التى - بالقطع - مصيرها إلى زوال .

والحق أن هناك أصحاب أقلام وأفكار يؤثرون السلامة على التصدي لحكم قائم وخصم عنيد ، إنهم يضيفون إلى صفحات التاريخ الوطني والاجتماعي فصولا من السلبية والخيانة نراهم فى المجتمعات المقهورة يدينون بالولاء لجلاديهم، ولشدة الإعجاب بهم يرطنون بلغتهم ، ويروجون للأعمال الوحشية التى ترتكب على أيدي قوات المارينز ضد الشعب العراقى .

فى مجال المقارنة يدعي أصحاب هذه الأقلام أن وحشية القوات الأمريكية لا

تختلف كثيرا عن الدمار النفسى والاجتماعي الذى كان يحدث لمواطني العراق فى سجون صدام :

"وهب أن ذلك صحيحاً ، فهل الخطأ يبرر الخطأ ؟ ...وإذا كان صدام حسين معرض الآن للمحاكمة ، فهل نتوقع محاكمة كل من جورج بوش وتوني بلير ورونالد رامسفيلد بتهمة مجرمي الحرب ؟

أشك بالطبع وحتى لو تم إعدام هؤلاء فإن ذلك لن يغسل العار الذى لحق بنا . "26".

إن الدماء التى تتقاطر من أيادي جنود الدولة العظمي ومن تدعي أنها حامية للحريات تذكرنا بأعمال الإمبراطورية الرومانية حينما كانت تدفع بالمستعبدين والأرقاء إلى حلبة المتعة واللهو ليصارعوا الأسود ، ولا تبلغ متعتهم مداها إلا بعد أن تمزق الوحوش أجسادهم إربا والدماء تسيل من بين الأنياب ، فتمنحهم مشاعر الغبطة واللذة .

فى الوقت الذى كانت الوحوش تلغ فيه دماء الأبرياء ، اهتمت روما بإصدار القوانين المدنية ، وأذاعت فى ربوع البلاد حق المواطنين فى العدالة والحرية ، ولقد انتشر الحديث عنها على مدار السنوات التى تعاقب فيها على عرش هذه البلاد أربعة من الأباطرة " نرفا "، "تراجان "، "هادريان "، "الأنطونينيون ".

ومن المفارقات المؤسية فى حياة الشعوب أن جميع الأباطرة أحبوا العدالة و تغنوا بأمجاد الحرية ، بينما كان دعاتها من الشعب والمطالبين بها ، تنصب لهم المشانق فى الساحات العامة .

وبشتى المقاييس ، لا يختلف الشعب الأمريكي عن شعب روما ، ولا عن أي شعوب تعيش تحت ظروف من صنع الثيوقراطيين "المسيحيون الجدد " والتكنوقراطيين، وأعضاء المؤسسة العسكرية ، وتحت ما يسمي بحماية المكاسب الفردية ، أتاح "بوش "لنفسه سن القوأنين المقيدة للحريات والالتفاف بها حول رقاب شعبه تحت دعاوي حماية آمن الوطن والدفاع عن حقوق مواطنيه .

لكن ليس معني الدفاع عن وطن ما أن يصل الأمر إلى الاستيلاء على بلاد

المسلمين ، و باسم الـدفاع عن أمن وسلامة المواطن الأمريكـي امتزجت الأهداف الإمبـريالية مع الفكـر الصهيونـي وصارت معا تـكونان شحنة مـتفجرات عُـبئت خصيصاً للقضاء على العقيدة الإسلامية .

ومن الطبيعي أن يتمخض عن هذه الآلية سلوكيات غير إنسانية ، تجد من السهولة لها عـلى الدوام طائفة مـن المنافقين ، ومن شـرائح اجتمـاعية مـسلوبة الإرادة ، ويصاحب ذلك صخب إعلامي حول أهمية "تطوير الخطاب الديني " :

"ولا غرو فقد حاول الأزهر بـدوره طمأنة هذا الخصم " الصليـبى " بـأن الإسلام لا ولن يكن خصما فى معترك الصراع والمواجهة ومن ثم فقد طرح مسألة "حـوار الأديان "وقام شيخ الأزهر بزيارات مـتتالية للفاتيكان كـما حرص على عقد لقاءات مماثلة مع رجالات الكنيسـة المصرية لإثبات التآخي بين الأديأن بصورة مبالغ فيها "27" .

غاب عن هؤلاء وهؤلاء :أن الإسلام كدين وثقافة وحضارة قادر كما حدث فى ربيع حياته أن يكون طـليعة هذه الأمة والمنظومة الفكرية والسيـاسية المعبرة عن آمال مـلايين المستضـعفين فى الأرض والمحرومين مـن العدل ، ومن تقع علـيهم اعتداءات حكام الولايات المتحدة الأمريكيـة ، وجميع من لم يستفيدوا من دروس التاريخ ، ولا من أحكام الزمن فى الأباطرة :

"فقد دمغ الشـعب بالفضيحة والـعار أبد الدهر تيبريوس الجـبار الغامض ، وكاليجولا الشـرس ، وكلود يوس الضعيف ، ونيرون المبذر الغـاشم ، وفيتليوس البهيمي الكريه ، ودومشيان الجبان الغليظ القلب ."28" .

وتبـعا لذلـك بلغت رومـا ذروة التـوغل فى التـردي إلى مـهاوي الضـعف والانحلال لـدرجة أن السمـات المشتركة الـتى تجمع بينـها وبين الولايات المتـحدة الأمريكيـة فى مجال ارتكاب الشـر والطغيان تجعل من الأخـيرة مرشحة لـلسقوط بمعدل قوة الدمار التى لحقت بروما على يد جماعة المتبربرين من ألمانيا واسكيذيا ، وهؤلاء هم الأسلاف الجفاة لأكثر شعوب أوروبا الحديثة حضارة وثقافة :

"ويمكن أن نفترض أن الفترة الثانية فى اضمحلال الإمبراطورية الرومانية تبدأ

بعهد جستنيان (٤٨٣) ٥٦٥ م الذى أعاد للإمبراطورية الشرقية ومضة عابرة من المجد بفضل قوانينه وانتصاراته معا ، وتشمل هذه الفترة غزو اللمبارديين لإيطاليا، وفتح العرب المسلمين للولايات الآسيوية والإفريقية ، وثورة الشعب الروماني ضد حكام القسطنطينية الضعاف ، ثم ارتقاء شارلمان الذى أقام سنة ٨٠٠ الإمبراطورية الرومانية المقدسة . "29" .

وبنهاية الإمبراطورية الرومانية على يد العرب لم يكن هناك من أبسط أشكال الولاء لنظام سقط وبلي أو لعقيدة مجتمع من آداب وسلوك كانت تشد الأفراد إليها فيما سلف ليعملوا من أجل الدولة التى ضاعت ، وإنما على حد تعبير صابر عبد الرحمن طعيمة فى كتابه "الإسلام والثورة الاجتماعية "، "كان الإفلاس الديني والاجتماعي عائقا فى أن يجمع شعب الإمبراطورية فى وحدة ولاء لقيم أو عقيدة ، وكان سبباً فى ضياع كل ما أمكن لتاريخ روما أن يجود به فى مجال الجهد الإنسانى فى مراحل صراعه مع قوي التناقض التى تعترض سبيله ." .

وتكمن قوة وحدة التناقض الذروة ، ولم تحل مشاكلها إلا حينما ارتفعت رايات العدالة والمساواة الحقيقية على أيدي المسلمين الأوائل، ورفرفت اجنحتها فى "صقلية "و "جنوا "والبلاد المجاورة .

وتأكد المواطنون حينذاك من زيف تيبريوس والأباطرة الذين نهجوا نهجه واعتنقوا مبادئه ، ولم ينسوا والتاريخ جرائم القتل التى اقترفوها تحت ستار من مراسيم العدالة وشكلياتها .

وثمة دليل آخر يشهد على عظمة الحضارة الإسلامية ، إذ استغرق تكوين الإمبراطورية الرومانية مئات السنين ، فى حين أن الإمبراطورية الإسلامية استكملت حدودها خلال ثمانين عاما فقط ، وظلت صامدة فى وجه الغزاة التتاريين والصليبيين .

والمشكلة أو الفارق النوعي هنا بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الأمريكية كما رصدها الدكتور محمد مورو فى كتابه: صراع الحضارات والحرب العالمية الرابعة " أن " الأخيرة تمتلك أدوات عسكرية واقتصادية ومواصلاتية أعلى

بكثير جدا مما امتلكته الأولى، وهذا يعني أن الخضوع سيكون أكثر قسوة ، ولكن فى نفس الوقت فإن الإمبراطورية الرومانية كانت تواجه شعوبا وأمما فى طور التكوين ولم تكن شخصيتها الحضارية قد تبلورت بعد، وهذا سهل لها مهمة الإخضاع ، وهو هنا على العكس ، فإن الأمريكان يواجهون أمما وحضارات وثقافات مكتملة التكوين ولن يكون خضوعها سهلا ، ولعل هذا بالتحديد ما يجعل الولايات المتحدة تسابق الزمن لضرب الحضارة العربية الإسلامية فى القلب».

ومن مظاهر التنافر والتناقض والتى تعمل الولايات المتحدة الأمريكية على تعميقها وارتفاع حدتها أنها تنسى جوهر الدين الذى تدعيه لنفسها وتحشد قواها المعلوماتية والعسكرية خلف الحدود الفاصلة الواقعة بين الشرق والغرب والتي تعود أسبابها لتقوقع الغرب على المادة وإيمانه العميق بما فيها من طاقات تحسم قضية التطور لما فيه رقى الإنسان وسعادته ، ومن خلالها يرتقى النوع وتشذب النوازع، غير أنه ثبت بيقين واستدلال أن الإنسان الذى تتحكم فى تشكيل حياته المادة يكون معرضا للسادية والعدمية والانهيار النفسى ، وأن الفضائل والأخلاق بالنسبة لمن كان هذا مصيرهم تعتبر من الأثواب الرثة والتى لا يليق بأنسأن متحضر "أن يرتديها..

وفى عماء يتهمون الإسلام بأنه ضد التطور ، وما خطة بوش المقدمة فى مشروع منطقة الشرق الأوسط إلا تعبيراً ملموسا عن عدم معرفة ، غير أن من يروجون لمثل هذا الادعاء يرتكبون خطأ فادحاً فى حق شعوبنا ، وفى نفس الوقت يجدون للغرب ذريعة لتلك الجرائم التى يرتكبها كل يوم ضد الإسلام والمسلمين بحجة أنه يجهل من أمورنا الكثير ، والواقع أن معرفة الغرب بنا يمكن أن يقال عنها إنها معرفة موسوعية موثقة ، فهو الذى قدم إلى بلادنا مستعمراً ، وهو الذى خبر جغرافيتنا وتاريخ أمتنا ، وهو الذى اتصل بنا عن طريق الحملات الصليبية ، ومن كتب الرحالة والمستشرقين أصبحت لنا ملامح وطبائع أخذ منها ما يروج لفكرته عنا بالتخلف .

وقد يمسى الفكر لدى الشعوب العريقة عليلا إلا أنه لا يموت :

"وهذا شأن الأمة العربية ، فلقد بات الفكر سقيما طيلة عصور الركود والجمود وكاد يقضى على عبقريتها من جراء التبعية والانقيادية وحان لها اليوم أن تستعيد صحتها . "30".

وتحت ظلال مشاعر العداء الإعلامية ضد أمتنا فى دول الغرب يدَّعون أن الإسلام ضد التطور ، وغضوا الطرف عن المحاولات المخلصة والدؤوبة للاجتهادات الفقهية والعلمية التى شابها الكدر والانحراف جراء فتاوي من يعملون موظفين فى أجهزة الدولة:

"والتى تفاقمت نتيجة أخطاء النظم الثيوقراطية والعسكرية الحاكمة .كما كانت محاولات التجديد تنطلق أساسا من مراجعة "الفقه "السلطوى السائد وتقديم فقه جديد يساير المتغيرات ومن الأمثلة الدالة فى هذا الصدد محاولة جماعة "إخوان الصفا " "تطهير الشريعة من الجهالات عن طريق الحكمة "لذلك دعت إلى فتح الباب على مصراعيه لكل الثقافات والفلسفات والعلوم باعتبارها أساسا للتنوير ، الذى يعد بدوره أساسا للتغيير .من هذا النوع أيضا محاولة ابن حزم الأندلسى تقديم "فقه جديد "يستند إلى "الدليل "و "البرهان "بعد أن تحجر الفقه التقليدي الرسمي نتيجة إغلاق باب "الاجتهاد "ومتغيرات العصر منها كذلك محاولة ابن رشد الفيلسوف الذى أوجد حلا للمشكلة الأزلية التى تتجسد فى تحديد العلاقة بين الشريعة والحكمة أو بين الدين والعلم ، وانتهي إلى برهنة تكاملهما لا تناقضهما ، تأسيسا على وحدة الغاية والمقصد ، فالدين والعلم فى نظره توأمان وما قد يبدو فى بعض الأحيان تناقضا بينهما فى بعض المقولات فليس إلا تناقضا ظاهريا يمكن تجاوزه عن طريق التأويل . "31" .

أما عن مفهوم تجديد الخطاب الديني فلا الولايات المتحدة الأمريكية تحبذ قيامنا به ، ولا البعض من فقهاء الإدارات الحكومية فى الداخل يريدون الاقتراب منه لأن تجربة الاجتهاد هرطقة وضلال .

وترى أمريكا فى التجديد خطراً يتهدد حضارتها ، ومن مصلحتها أن يظل الإسلام رابضا فى رقعة من الظل ، لأنه لو خرج منها وطوع قواه سيصبح تكتيكًا فى خدمة أيديولوجية تجفل منها قلوب الغرب ، وتدفع الرئيس "بوش "للحديث طوال الوقت عن خطر الإرهاب الذى يؤرق مضاجع شعبه ، وما يمكن أن تصنعه "القاعدة "فى حياتهم من دمار ، ودرءاً لهذه المخاطر سحب من شعبه مساحة من الحرية الاجتماعية عله يتمكن من خلال توقيف الجماعات والأفراد من المحافظة على أمن المجتمع .

ظهر ذلك جليا عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، ثم بدأت مساحة الديمقراطية تتقلص يوما بعد يوم ، وقد أشار إلى هذا التدهور الاجتماعي الكاتب الأمريكي "توماس فريد مان " بقوله: نحن مهددون بخسارة أمريكا كقائدة للمرجعية الأخلاقية وكمصدر للإلهام فى هذا العالم ..أن إدارة بوش تقودنا نحو الكارثة " .

"بوش "من جانبه كان يعالج المسائل الداخلية والخارجية بمنطق المبعوث من قبل العناية الإلهية ، إذ قال فى "أبرلأند بمدينة ناشفيل "لرجال الإعلام الدينيين قبيل غزو العراق "أن الإرهابيين يكرهون حقيقة أن نعبد الرب العظيم بالطريقة التى نراها مناسبة ، وأن الولايات المتحدة مدعوة إلى إيصال هدية الحرية التى منحها الرب لكل إنسان على وجه المعمورة " .

هدية الحرية "تكوين لغوي ما له سابق فى القواميس "هدية "من مكونات شيطأنية تُرسل كشواظ من نار إلى الشعوب الإسلامية ..هدية الرجل الأبيض ومن رفع على كاهله عبء صليب زائف متحملا مسؤولية الداعية والمبشر بالحرية "التى منحها الرب لكل إنسان .

لم يكد يمضى على قول "بوش "وقت طويل حتى وقف بين رهط من المرشدين الاجتماعيين الرعويين وهو يشهدهم على إيمانه بعيسى المسيح، ثم قال : "ما كنت لأصبح رئيساً اليوم لو لم أتوقف عن معاقرة الخمر قبل ١٧ سنة ، وقد استطعت ذلك بفضل نعمة الرب وحده .

بوضوح ، أقر أنه توقف عـن معاقرة الخمر ، لكنه لم يقل أبدا أنـه سيتوقف عن ارتكاب الجرائم فى حق الشـعوب مبرراً ارتكابه لمختلف الجرائـم فى حق الإنسانية بقوله : "إن كان للمرء أن يرتاح ضميره ، فأنا مرتاح الضمير بهذا الشأن " .

إمبراطور الولايات المتحدة الأمريكية ينـام قرير العين ، مرتاح الضمير ، بعد أن وجد نفسـه فى وضع يسمح له بأن يصبـح مثل كهنة مصر الـقدامي ، أو مثل الكهنة فى الهـند وفارس واسرائيل وآشور والحبـشة ومن كانوا يستمـدون سلطتهم الدنيوية وممتلكاتهم التى اقتنوها من أصل سماوي .

وجد نيافـته فى الكهنة الذين قالوا : إنه قـائد الحملات الصليبيـة الجديدة ما يحفزه ليوغل فى إبراز عقيدته قولا وعملا "البداية كانت فى أفغانستان ثم العراق "كأنه يريد أن يصبح فى المسيحية اللوغوس " كلمة الله " .

وبات شديد الإيمان بما يمكن أن تصنعه فى حياتة "صكوك الغفران "وأنه إذا ثبت اتهامه فى جريمة إبادة شـعب وتدمير البُني التحتية لمستقـبل أمة ، فإن الكنيسة ستكون أول مـن يسدل العباءة عـلى ظهره ..أليس هو يرعـي مصالحها ومـصالح الرب على الأرض ؟ .

أما بخصوص عمليات الإبادة فى الـزمن القديم ، فمن المعروف أن هناك عدة شعوب قامت من قبل بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم .

"ولكن من الثـابت تاريخيا أن العبـرانيين والكنعانيين تزاوجـوا ، وأن معظم ادعاءات الإبادة قـد تكون من قبـيل التهويـلات التى تتواتر فـى كثير مـن الوثائق القديمة أو تكون ذات طابع مجازي .وربما يكون قد تم فعلا إبادة سكان مدينة أو اثنتين ، لـكن ذلك لم يكن الـنمط السائد نـظراً لتدني المسـتوي العـسكرى لدي العبرانيين ، كمـا أن استيطان العبرانيين لم يتم عن طريق الـغزو دفعة واحدة وإنما عن طريق التسلل أيضا « 32 » .

يشـكك د .عبد الوهاب المسيـرى فى بعض وقائع التاريخ "لتدني المـستوي العسكرى لدي العبرانيين "، مع أن اليهود أنفسهم لم ينفوا الحرائق التى أشعلوها فى خيام الكنعانين، ربما لأنهم لم يجدوا فى ارتكابهم الخراب والتدمير ما يندى له الجبين

وربما لكانوا حذفوا الفصول التى نصت على ارتكابهم ما نعتبره نحن جرائم وقمة العنصرية ، وهم يعتبرونها من الفضائل والخلاص على يد الإله "يهوه " الذى كان يحفزهم لإشعال الحرب وهو يتقدمهم على رأس الجنود .

ما صنعه اليهود فى العهد القديم والوقت الراهن يقوم بأدائه الرئيس "بوش " حاليا تحت تأثير رغبة شاذة عارمة أملا فى الوصول إلى مرتبة "ما شيَّح "التى تعني فى العبرية "السيد المخلص "وأصل عقيدة الماشيح المخلص فارسية بابلية و "المشيحانية "تعني فى العبرية "مشح "أي "مسح "بالزيت المقدس ، وكأن اليهود يمسحون رأس الملك والكاهن بالزيت المقدس قبل تنصيبهما ، وما يتمناه " بوش "أن تصل به العقيدة إلى تحقيق حلم "الماشيَّح "ذلك المحارب العظيم الذى "سيعيد ملك اليهود ويهزم أعداءهم(أشعياء ٩ / ٩ ـ ٧) .

لأجل ذلك ، أعرب عن عميق إيمانه عام ١٩٩٣ لأحد الصحفيين فى "أوستن "قائلا :" إن المؤمنين بالمسيح وحدهم سيصعدون إلى الجنة .. "أعجب قوله مختلف الأوساط الدينية ، واستقطب الإنجيليين فى الانتخابات ، فهذا " صليبى "يبشر بالإعداد لحملة صليبية جديدة ..إنهم لاحظوا على من سبق " بوش "من الرؤساء الأمريكيين الاهتمام بملء أسماع العالم بالصراخ فى البرية ، ويدعون كثيرا ولا يفعلون سوي القليل ، أما "بوش " فحدث ولا حرج حسبه أنه يعالج المشاكل الداخلية والخارجية على أسس راسخة فى تعاليم الكتاب المقدس وبروح كنسى متدفق .

يعقب على هذا الكلام الكاتب الإنجليزي "جيلبرت كيه تشستيرتون "واصفا الولايات المتحدة بقوله : « إنها أمة بروح كنيسة وكل رئيس كقس يلقى على المنبر عظات توعدية ..لكن بعد أنتهاء حرب واحتمال شن أخرى تجلى أمر محورى وهو :أن الرئيس الحالى "بوش "والرئاسة الحالية هما الأشد رسوخا فى الإيمان خلال العصور الحديثة ، وكأن هذه الرئاسة تأسست ودعمت وارشدت بأمانة فى ظل قوة الرب الدنيوية والروحانية " .

لقد تبنت إدارة "بوش "الفكرة القائلة : إن هناك حلا للمشكلات الداخلية

وللمشاكل التى يسببها الإرهارب لأمريكا فى الخارج ، وهو يتلخص بالتالى :
"إعطاء الجميع فى مكان ما حرية إيجاد الرب أيضا " .

وجد "بوش "الدعم والمؤازرة على درب "حرية إيجاد الرب "فى رجال المال والعسكريين ومن خلال نسج العلاقات وتـوطيدها برجال دين يشكلون الحركة الأنجيلية الـصاعدة فى الحياة السيـاسية ، وقد أصبحوا الآن يمتـلكون قلب الحزب الجمهوري ويجلـسون على رأسه ، لدرجة أن الكثير من الأمـريكيين ـ وفى العالم أجمع ـ صبحوا ينظرون إلى "بوش "كرجل أعمته معتقداته "ومعتقدات مناصريه "فهو شرير ، صليبى جديد ، يسعي جاهداً لرد الشرق إلى العالم المسيحي .

وبالنظر إلى انطباعات العاملين فى البيت الأبيض ، وهو رأي لم يصدر عنا ، ولكنه منشور على صفحات مجلـة نيوزويك الأمريكية الصادرة فى ١١ مارس سنة ٢٠٠٣م" .

نكتـشف أننـا لسنا فى دائـرة حكوميـة ولكنـنا مسـاقون فى رواق كـنسى ، فالأجـواء المخيمة علـى القصر الرئـاسى تتسم بجـو من الصلاة ، ولطالمـا كانت مجموعات دراسة الكتـاب المقدس يجدونها هناك "حتى آل كلينتون كانت لديهم واحـــدة "، ولكن هذه المجمـوعات فى عهد بوش باتت اليـوم فى كل مكان ، وتحدد الفعاليات الرئيسية النهج المتبع ، فمكتب "غيرسن "يقترب يوما بعد يوم من المكتب البيضاوي ، و زوجة رئيس الموظفين "أندرو كارد "قسة فى الكنيسة المنهجية ، أما وزيرة الخارجية " كوندو ليزا رايس التي أصبحت وزيرة للخارجية "فكان أبوها مـبشرا فى ألاباما ، ويعمـل إلى جانب هؤلاء "ريتـشـارد لاند " القائد الرئيسى للجناح السياسي للمؤتمر المعمداني الجنوبى " .

ومع أهمية ما ذكر حول البنية السياسـية والدينية لحكومة جورج بوش وعلاقته الحميمة بالمسيحيين الجدد ، فإننا نسقط جانبا مهما فى نسيج الفكر السياسى للدول الأوروبية إذا لم نشر إلـى مراميه وفحواه، أن الاستراتـيجية الأمريكية تلـتقى معه بشكل ما ، فقد سبق للرئيس الفرنسى الأسبق "فاليرى جيسكار ديستان "وهو يميني ورئيس المؤتمر الدسـتوري للإتحاد الأوروبى أن قال بوضوح : " إن الاتحـاد

الأوروبى نادٍ مسيحي ، ويجب أن يبقى نادياً مسيحيا " .

وهذا أيضا ما تقوله "إنجيلا ميركل "زعيمة الحزب المسيحي الديمقراطي الألماني وحلفاؤها من المسيحيين الاجتماعيين فى بافاريا ، إلى جانب النازيين الجدد وسائر الجماعات القومية المتطرفة فى ألمانيا .

وفى تجمع لشواذ الفكر كأن أبرز من طفا على سطح حياتهم موقف الرئيس "بوش " بعمق ثقافته الصليبية وعدائه للإسلام ، فبعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، وتحديداً فى بداية عام ٢٠٠٢ برز فى حياته رجل يهودي روسى ، يعيش فى إسرائيل منذ عام ١٩٧٠ ، إسمه "ناثان شارانسكي "ألف كتابا تحت عنوان "قضية الديمقراطية "ومن المعروف أن ناثان هذا من أشد المتحمسين للقضاء على الفلسطينيين ، ويدعو لطردهم "ديمقراطيا "إلى خارج وطنهم ، أما من يبقى منهم فى غزة والضفة الغربية ، فعليهم :

تفكيك المخيمات الفلسطينية كلها .

وقف التحريض ، وإنهاء الحض على كراهية اليهود .

توسيع الفرص الاقتصادية .

الاشتراك مع إسرائيل فى مكافحة الإرهاب .

امتزجت أفكار بوش بأفكار "ناثان شارانسكي "وبما أنه رئيس أقوي دولة فى العالم رأي أن من واجبه الاهتمام بهذه "الديمقراطية "وإعداد مختلف أدوات الشر لنشرها فى العالم .

كأن حماس "بوش "لديمقراطية ناثان العنصرى حافزاً شجعه ـ ولأجل خاطر عيون إسرائيل ـ لإصدار الأمر بتشكيل إدارة تكون تابعة لوزارة الخارجية ، مهمتها الأساسية رصد الأعمال والأقوال المعادية للسامية ، ثم رفعها لسيادته حتى يتسني له عمل اللازم .

فى يناير ٢٠٠٥ صدر عن تلك الإدارة تقرير للفترة التى انتهت مع بداية يناير ٢٠٠٤ ، وتضمن التقرير ما يفيد أن جمهورية مصر العربية لم يظهر فيها أي نشاط معاد للسامية باستثناء ثلاث حالات ليس منها ما يتسم بالخطورة :

الحالة الأولى :

مقال نشرته مجلة أسبوعية تصدر عن الحزب الوطني نقل فيه صاحبه كلاما لبعض المؤرخين الأوربيين عن أكذوبة « الهولوكست» .

الحالة الثانية :

كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون "الذى كان مودعا بمكتبة الإسكندرية .

الحالة الثالثة :

كانت بشأن منع السلطان المصرية الاحتفال بمولد أبو حصيرة اليهودي المصرى المدفون فى إحدي قري محافظة البحيرة .

وأشار التقرير فى نهايته إلى أن مكتبة الاسكندرية استبعدت مخطوط بروتوكولات حكماء صهيون ، كما أن المحكمة الإدارية العليا فى مصر أصدرت حكما يسمح بإقامة مولد أبى حصيرة الذى أصبح واحدا من شيوخ مصر وأصحاب المقامات فى بلادنا !

وعلى ضوء هذه المتواليات قدم "معهد عبر الأطلسى "الأمريكي تقريرا رسميا إلى الاتحاد الأوروبى رصد فيه وسائل الإعلام التى تبث مواداً وصفها بالعنصرية وتحض على كراهية الغرب واليهود ، وهي "قناة الجزيرة "التى ترسل إرسالها من قطر ، و " قناة العالم "وهي إيرانية تبث إرسالها من بيروت ، و " قناة اقرأ "السعودية وهي تبث من روما .

المديرة التنفيذية لـ " معهد عبر الأطلسى " المكون من لجنة أمريكية يهودية أدلت برأيها لوكالات الأنباء العالمية ، قالت فيه : « إن بث أيديولوجيات الحقد التى تهدد الغرب والمجتمعات الديموقراطية ينبغي أن تكون موضوع اهتمام كل الحكومات الأوروبية » .

فى ضوء تلك المتغيرات يمكن إعادة النظر بإمعان فى "قضية الديمقراطية " وكما دعي إلى تبني أهدافها الرئيس "بوش "وأعلن عن مدي فرحه لمعرفته بناثان شارانسكي ، مؤكداً أمام كل من يقوم بزيارته " أنه سعيد جداً بقراءة هذا الكتاب ومعرفة مؤلفه شخصيا ."

ثم أدلى بتصريح لرئيس تحرير صحيفة "واشنطن تايمز "قال فيه: " إذا كنت تريد أن تعرف كيف أفكر فى السياسة الخارجية ، فإن عليك أن تقرأ كتاب شارانسكي.. إنه كتاب مختصر وجيد ..إني أنصح بقراءة هذا الكتاب فهو كتاب عظيم ."

بذلك ، يتجاوز "بوش "نطاق ومسؤولية رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل ضمن جوقة فى خدمة أهداف الصهيونية ، وظل حتى الآن حريصا على إسداء النصيحة لكل من يطرقون أبواب البيت الأبيض مغريا إياهم بقراءة كتاب : "قضية الديمقراطية ".

"ومما لا شك فيه أن كتابة من هذا النوع خلقت لدي مسيحي الغرب عقيدة مشوهة ضد المسلمين حتى وجدوا من الاستحالة ألا ينجو العالم من الأشرار الا إذا تحالف الجميع ـ مسيحيون ويهود- للقضاء على هذه الأفاعي السامة وادعي مفسروا التنبؤات أن الأنتصار على المسلمين والعرب وحده ولا شيء سواه سيمهد الأرض لظهور الملك المنتظر لليهود ، وللمجئ الثاني بالنسبة للمسيحيين"33" .

وأصبحت صورة المسيح فى الفكر الديني المسيحي متأثرة بكل هذه التراكمات: «فهو أيضا مُرسَل من الإله ، وهو ابن الإنسان وإبن الإله ، وهو يتعذب كثيرا بل يُصلب ثم يقوم وسيُحرز أتباعه النصر .ولعل الفارق الأساسى بين الرؤية المشيحانية فى اليهودية والرؤية المشيحأنية فى المسيحية هو أن المسيحية جعلت الحلول الإلهي فى شخص بعينه (عيسى ابن مريم) وهو حلول مؤقت ونهائى وغير قابل للتكرار ، على عكس الفكرة المشيحانية فى اليهودية .كما أن الخلاص فى الفكر المسيحي غير مرتبط بمصير أمة بعينها وإنما هو ذو أبعاد عالمية ، فباب الهداية مفتوح للجميع . "34" .

من هنا طرق "بوش "باب الأمنيات ، فبعد أن أقلع عن شرب الخمر وجد باب الهداية مفتوحا أمامه ، لماذا لا يشحذ عزيمته حتى يحل بجسده روح المُخلص؟ ..واصطبغت لغته بأنفاس العظات التى يستخدمها المسيحيون أثناء مراسيم الجنازة .

فى الأول من فبراير ٢٠٠٣ وبعد ساعة من انفجار المركبة الفضائية ، قال:

" لم يعد طاقم المركبة كولومبيا إلى الأرض بسلامة .لكن بوسعنا أن نحمد الله على أنهم وصلوا جميعهم بسلامة إلى بيتهم .

ومن خطابه للأمة فى ٢٩ يناير ٢٠٠٣ أقتبس من أقدم التراتيل الإنجيلية كلمة "قوة ، قوة خارقة "قائلا :هناك قوة ، قوة خارقة فى صلاح ومثالية وإيمان الشعب الأمريكي .

ولخطاباته العلنية استفاد من قلم الكاتب "مايكل غيرسن "وهو من خريجي جامعة ويتون فى ولاية إلينوي (التى تعتبر هارفارد الإنجيلية) ، وبنظرة ثاقبة فهم "مايكل "شخصية "بوش "، وعرف كيف يستفيد من موهبته للتعبير عنها بلغة جليلة مرحة بوسعها إرضاء الناخبين المتدينين والعلمانيين الذين يبحثون عن شعور ضائع بالارتقاء والنهوض فى الحياة العامة .

ثم انتقل تدريجيا من مواطن مشبع بثقافة مسيحية ليصبح مقاتلا فى حملة صليبية من إعداده حتى يقضى على المسلمين الكفار ، ومن الأدوات التى يمهد بها لخوض هذه المعارك لعبة الحرية ، وفى خطابه بمناسبة حفل تنصيبه لفترة رئاسة ثانية، شدد على أهمية نشر الديمقراطية فى جميع أرجاء العالم ، وقال :إن سياسة بلاده تتركز على دعم جميع الحركات الديمقراطية بهدف القضاء نهائيا على أشكال الحكم الديكتاتورى فى العالم .

لا يختلف إثنان على إفشاء الديمقراطية والحرية بين أرجاء المعمورة لكن الاعتراض ينصب على موقف الإدارة الأمريكية الشائن من قضايا العرب والمسلمين، فأنىّ لها أن تؤسس للديمقراطية فى بلد وأياديها تقطر بدماء أبنائها؟.. كيف نصدق وهو يقول فى خطابه للأمة يوم ٢٩ يناير ٢٠٠٣ "الحرية التى نناضل من أجلها ليست هدية أمريكا إلى العالم ، بل هي هدية الرب إلى البشرية "؟ .

يعلق "مايكل ما كفول "أستاذ العلوم السياسية بجامعة "ستنافورد "على ادعاءات بوش ، قائلا " :كلام بوش كلام جميل ، ولكنه يفتقدإلى استراتيجية حقيقية جديرة بالاحترام . " .

ويذهب "ما كفول "الذى سبق وأن شارك فى برنامج الترويج للديموقراطية

فى كل من روسيا وصربيا وأوكرانيا إلى أبعد من ذلك ، مضيفاً " :أن الإدارة الأمريكية لم تقدم على أي تعديلات جزئية فى هيكلها بهدف نشر الحرية فى العالم ، وأن نشر الحرية فى العالم مرهون بتغييرات جذرية فى فكر الإدارة الأمريكية . ".

ليست لدي الولايات المتحدة أي رغبة حقيقية فى تغير نظرتها من قضايا العرب ، وإن كانت هناك بعض كتابات لبعض المفكرين ومنهم "هنتنغتون "تظن أنها توهمنا لدرجة الإقناع بأن أمريكا المهيمنة ..المستبدة ، أخذت تتراجع كنتيجة لتوسيع وانتشار وتأثير القوى الغربية الإمبريالية التى تتشكل فى أوروبا بفعل التكتلات السياسية والثقافية ، وأن الغربيين يرون أن حضارتهم فى مكانة غير متوازنة ويتخوفون من المجتمعات الأضعف الآسيوية والمسلمة .

مثل هذه الأقوال قد تصيب بعضنا بالدوار عندما يدعون علينا بأننا فى أعلى القمة وعدونا يستعد للانحدار نحو الهاوية .

صرير أصوات الأقلام المتكسرة

قد يراهن البعض علينا ، يستعملون عدداً من الأرقام للتدليل بأن مقود المحركات ليس بأيدينا اليوم ، وعلينا أن ننصاع ونستجيب لكل ما يُملى علينا ، وهناك غير الانهزاميين من يتحركون تحت تأثير مشاعر الانتقام من ظلم لحق بهم على أيدي مستعمريهم القدامي ومستغليهم الجدد ، ولربما تكون الأغلبية قضت أعمارها دون تدبير أو قيادة عادلة ، حازمة ، ولم يكن أمامهم سوي الاندفاع بمشاعر السخط لرفع الفؤوس فى وحشية ، قد يضعونها ـ لعدة أجيال ـ فى جانب من الظل ، أو يسددونها إلى رؤوس بعضهم بعضا ، وقد يستاء من سماع هذا الصليل الساعون إلى غرز ومسمرة "النموذج الأمريكي "بين ضلوع شباب أمتنا تحت دعاوي كثيرة وأغراض مضللة ..من بينها أنهم المحبون للحرية والعاشقون للنظام السياسى الذى يقوم على التعددية الحزبية .

يتراتب هذا كله مع نمو تلك الهياكل الداخلية والمليئة بتحاليل المهتمين بقضايا الأمة العربية ، ونراهم وهم ينتصرون للأسباب التى تروج لخلق وعي مزيف تجسيداً لمشاعر راجت بيننا قديما حول المآسى التى حاقت بنا، ولا يجدون ـ للاستراحة منها ـ لا بوضعها على مشجب "الخارج "لأنه هو الوحيد الذى نكل بنا واستعمرنا وأقعدنا عن النهوض ، ولا شيء يذكر فى أحاديثهم عن البلايا والنكبات التى نجحنا في صناعتها ـ ضد شعوبنا ـ محليا وبأيدينا .

وأصبح من العادي والواقعي ، والمتوقع أن نرى كل يوم أصحاب الأفكار والأقلام الانهزامية وهم يكشفون عن عوراتهم بدون حياء،بعد أن أنتقلوا منذ زمن بعيد من منطقة سياسة التبرير والتسويغ إلى استعمال أساليب الهجوم على الهوية العربية وكل ما فى حياة الإنسان العربى من نبل وتضحية وجهاد ، حتى ثوابت الأمة وأنتسابها إلى العروبة والإسلام ، أصبحت بأيديهم وأقلامهم مثار جدل

وتشكيك :

"ففي زمن الانكسار ، لا غرابة في أن تصبح "ثقافة الاستسلام "معلما بارزاً في لغة الخطاب الإعلامي ، من ثم فضلا عن اختراق مجموعة "المارينز "للمنابر الإعلامية المختلفة ، فإن عناصرها لم تكتف بذلك ، وإنما عمدوا إلى تأسيس منابر أخرى احتشد فيها نفر منهم ، وحولوها إلى محطات إرسال ، ولبثّ تلك الثقافة رفعت لافتات مختلفة ، بحثية واستراتيجية وليبرالية ..إلخ ، وإضافة إلى بعض المراكز التى ادعت اهتماما بالمجتمع المدني ، فإن العام المنصرم شهد تأسيس أكثر من صحيفة ومجلة "أحدثها صدر فى شهر نوفمبر كانت "ثقافة الاستسلام" محورا رئيسيا وقاسما مشتركا بينها .

"ولأن الأمريكيين لا يخفون ما يفعلون ويكشفون أغلب أوراقهم، ولو بعد حين فإنهم هم الذين أعلنوا على لسان وزير دفاعهم دونالد رامسفيلد أن الإدارة الأمريكية تخوض معركة "حرب الأفكار "فى العالم العربى والإسلام ، وهم الذين أعلنوا على لسان متحدث باسم السفارة الأمريكية بالقاهرة عن اتجاههم إلى إنشاء وتمويل صحف ومنابر إعلامية فى بعض العواصم العربية ، ولم يخفوا أنهم يمولون قناة "الحرة " التليفزيونية ، وإذاعة "سوا "ومجلة "هاي "بحسبانها ضمن الأسلحة المستخدمة لكسب تلك الحرب . "35" .

ومن يتابع حشد الحملات العسكرية ضد أمتنا ، يجد أن قواعدها فى الخارج تستند على أكتاف عدة أقلام تعمل داخل البلاد العربية فى الترويج لأفكارها ، حتى ينقسم الإنسان العربى على نفسه ، ممزقا بأقلام العمالة وسوء القصد ، والكذب .

إن أقلام الباطل لهي أسوأ أداة صادفها العرب والمسلمون فى حياتهم ، فكذبة صغيرة بقلم كاتب من "بلادنا "تتلقفها "قناة الحرة "وتروج لها "إذاعة سوا " و "مجلة هاي "وغيرها ، تصبح فى قوتها تتجاوز أحجام الخراب والدمار النفسى والعقلى الذى تحدثه قنبلة "نيوترونية "واحدة على مدينة يتجاوز عدد سكانها مائة ألف نسمة .

ما يطفئ العقل ويصيب الأرواح بالبرودة ، تلك الأعمال الحقيرة التى يستيقظ مواطنو منطقة الشرق الأوسط عليها صباح كل يوم ، فيجدونها مضروبة حول رؤوسهم فى حزام مفتول من أخبار الكذب والتدليس والنفاق والانهيار الأخلاقى، وعرض نتاج العقول ، والعقول ذاتها فى مزادات ـ أحيانا تكون سرية وأحيانا أخرى علنية ـ لمن يتنازل عن ...وعن ...و ...

ولا ندرى كيف يصمد هذا المواطن فى مواجهة الدعاوي والحملات الزاحفة عليه بشراسة وافتراس من الخارج ؟ ..كيف يتعامل مع أقوال المرجفين فى المدينة، وما ينشر ضدنا فى الغرب تحت دعاوي الحضاراتية ؟

هناك الكثيرون يزيفون ضدنا الحقائق ، وما ينشره "صموئيل هنتنغتون " بقلمه لن يكون آخر من يكذب ، أو آخر من يقلب الحقائق على رؤوسها .
ومع اعتقادنا أنه إذا كان فى بعض ما كتبه دقيقا ، فذلك يؤكد أنه ليس مصيبا دائما .

من الأمور التى تؤخذ عليه ، أنه فى "صدام الحضارات "لم يقدم فصلا معرفيا فى الوحدة الكلية للتاريخ ، بل قام بتجزئته كان كله لم يكن من مكونات بعضه ، وجعل من التركيز على قيام الإمبراطورية الأمريكية وما يصادفها من عقبات اهتمامه الرئيسي ، وكأن دائم الحذر ، يتحول القلم فى يده مثل ناقوس ظل يقرع به الأسماع ، لعل دقاته المحملة بالتخوف على مستقبل الحضارة الغربية تلفت انتباه أمريكا بحيث تصبح قادرة على الوقوف فى وجه الخطر الذى يتهددها بسبب نهوض الصين والدول الإسلامية على حد زعمه .

وهو استنباط نستشف من خلاله ـ وربما دون قصد من "هنتغتون"ـ أن مثل هذه الكتابات الشائعة الأن فى بلاد الغرب ، تعد إرهاصا بانهيار الإمبراطورية الأمريكية وهي فى قمة التألق وذروة البزوغ .

فى المرحلة الآنية التى يعيشها العالم العربى تحت حدة هذه النبرة المصاحبة لحركة صرير الأقلام على شغاف القلوب وشرايين العقول ، لا يتوقع من ورائها سوي إحلال اللامعقولات مكان العقل والنظرة الموسوعية ، فما يجرى على

السطح وتتخمنا بـه ساحات الإعلام يزج بنا فى مربع عمليات السـياسة النابعة من ممارسة القوة والإزاحة والسيطرة ، لنصير نهبا لزحف العولمة .

إزاء ذلك الطاغوت لن تنفعنا الأحلام ولا عدم المواجهة فى يوم أسدلت على جنباته عـباءة الليل ..لن نقو إلا إذا نفضنا عن رؤوسنا الـصور الزائفة و المضفورة بأصفاد من نسيـج كلمات غرر أصحابها بنا ، ولكي ندرأ عنـا أخطار العولمة فلابد أن نعيد النظر فى جـوهرها ، بلا سخط ، بل بموضوعية تكتسب مصـداقيتها من قلب الكـشوف وبيانات الآخـر ، ومن خلال التـقارير المقـدمة من أعمـدة النظام الرأسمالى ، حيث يتضح أن الأمم المتطورة تكنولوجيا ستكون أسبق من غيرها فى الحصول على نتائج وخيمة بسبب العولمة ، وأن جـميع نتائجها ليست فى مصلحة الإنسانية .

وهذه بعض نتائجها :

١ - ارتفاع عـدد العاطلين بـنسبة قـد تصل فى المستـقبل إلى مـا لا يقل عن ٨٠٪، ويقال : إن شركة بحجم شركة الكمـبيوتر العالمية التى تدار بقوة ١٦ ألف عامل ستدار قريبا بستة أو ثمانية عمـال مهرة بحيث تصبح المسألة فى حياة الإنسان إما أن تأكل أو تؤكل .

٢ - أن شعار مـواطنون فائضـون عن الحاجة الذى تعـلنة الدولة الرأسمـالية سيكـون هوالعامل الأكـيد الذى سـيدمر أركـان العولمة الأمـريكية ، إذ سـتذهب أصـوات الكـادحين(٨٠٪) ضد التوجـه الرأسمالى سوف نلمس هـذا لاحقا فى حشود العمال الزاحفة ضد أنعقاد مؤتمر ستايل وغيره .

٣ -هناك ٣٥٨ مـليارديرز يمتـلكون معـا ثروة تساوي مـا يملكه نصـف سكأن العالم، وهؤلاء الـ ٣٥٨ معبئون بنظرية العولمة التى ـ فى حالة تطبيقها على الدول النامية ـ سيزداد ثراءهم .

بهذه العبارة انتهى تقرير "التنمية فى العالم "الذى تصدره الأمم المتحدة سنويا إلى القول :

"إن العولمة تفيد الأقلـية ، وتزيد من سوء الحال بالنسبة للكثـيرين وتضاعف من

عمليات التفاوت ، فخلال الثلاث حقب الماضية شهدت فقط ١٥ دولة مستويات عالية من النمو، ، فى المقابل فإن الوضع الاقتصادي لـ ٨٩ منها أسوأ من عشر سنوات مضت ، منها ٧٠ دولة نامية ، فأن مستوي دخل اليوم أقل من مستواه خلال الستينيات والسبعينيات وما قبلها ، فالعبارة القائلة: إن الفقير يزداد فقراً والغني يزداد ثراء يثبتها الواقع ، وعادت إلى الوجود ـ إلى عالم اليوم فى ظل العولمة تتمثل فى خلق حالات من عدم الاستقرار الاجتماعي ، ورفع حالة عدم العدالة بين الدخول ـ السيطرة من قبل قلة من الأجانب . "36".

وارتفعت نسبة البطالة فى دول الغرب وزادت معدلات الجريمة ، ومعظم الجرائم المرتكبة على مستوي العالم هي السرقة والسطو ، فى حين مثلت جرائم العدوان مثل القتل من ١٠ إلى ١٥ ٪ من إجمال الجرائم المبلغ عنها .

ولوحظ أن معدل الجريمة كان أعلى فى الدول الصناعية مقارنة بالدول غير الصناعية ، وتشير الإحصائيات إلى أن الجريمة هي المشكلة رقم واحد فى المجتمع الأمريكي ، فهي تسبق الكساد والتضخم وأى مشكلة اقتصادية أخرى .

إلى جوار ذلك يمكن الحديث عن فائض مادي ومكاسب عديدة أحدثتها ثورة التكنولوجيا فى عالم الصناعات والزراعة ، إلا أن الخير الذى كأن يرجي منها لصالح الإنسانية أضيف إلى أرصدة الاحتكارية العالمية التى تقدم لنا اليوم العولمة كنموذج لفرض حضارتها .

وحسب ما يرى الكثير من الاقتصاديين والمنظمات المعنية بشؤون التنمية ، كان الاتجاه لتحرير التجارة غير المتكافئة أحد الأسباب التى جعلت دولة مثل أمريكا تستأثر بنصيب الأسد من منافع العولمة ، حتى أصبحت تدعي فى صلف وغرور : "إنها ستفضى إلى حضارة جديدة يستغني فيها عن ملايين العمالة فى الدول الصناعية وغير الصناعية " .

لذلك يهتم العولميون فى بلادنا بحقن أرواحهم بفائض أرباح المليارات من الدولارات الاستثمارية حتى يكونوا قادرين على تحمل الصدمات المفجعة التى ستصيب أوطانهم أثناء انطلاقهم من قاعدة المصالح الخاصة والصلات المشبوهة فى

مجال السمسرة وحركة البورصة والتحكم فى أسعار السوق .

إن دفاعهم عن هذه المصالح حملهم إلى تشبيه الواقع الحالى بما يجرى عادة فى الطبيعة ، حيث لا قدرة لأحد على التصدي لها ، فمن من البشر - مثلا - استطاع أن يقف فى وجه زلزال تسونامي ؟

كذلك يمكن القول : إن العولمة جاءت بطاقة غير عادية ، ولا قدرة لأحد على الوقوف فى وجه رياحها العاتية ، وثمة سبب بسيط ربما يكون غاب عن فطنة الشعوب : ألا يكفى أنها النتيجة الحتمية لتطور تكنولوجي واقتصادي لا يسمح لأحد بالتصدي لها؟ ..

"الواقع أن هذا ليس إلا ثرثرة ، فالتشابكات الاقتصادية ذات الطابع العالمي ليست حدثا طبيعيا بأي حال من الأحوال ، إنما هي نتيجة حتمية خلفتها سياسة معينة بوعي وإرادة ، فالحكومات والبرلمانات هي التى وقعت الاتفاقيات وسنت القوانين التى ألغت الحدود والحواجز التى كانت تحد من تنقل رؤوس الأموال والسلع من دولة إلى أخرى .

فرجالات الحكم فى الدول الصناعية الغربية هم الذين خلقوا - ابتداء من تحريرهم المتاجرة بالعملات الأجنبية وعبر السوق الأوروبية المشتركة وانتهاء بالتوسع المستمر لاتفاقية التجارة العالمية المسماة (الجات) بانتظام - الحالة التى يعجزون الآن عن معالجتها ."37" .

وإذا أضيف إلى هذه المشاكل ظروف معاناة شعبنا اليومية ، فماذا نصنع وقد بلغ عدد من يعيشون فى البلاد تحت خط الصفر وفقا لتقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٣ ثلاثة ملايين عاطل ، وثمة ملايين أخرى مهددة بخطر الوباء العولمي ؟ . يضاف إلى هذا الجيش نسبة العاطلين من الشباب وأكثرهم من خريجي الجامعات، ومن يشكلون إلى جانب إهدار الطاقات وعدم الاستفادة منهم عبئا على الاقتصاد الوطني لكونهم مستهلكين وغير منتجين .

ربما تكون البيانات التى تنشر بخصوص الدخل العام ومعدلات التنمية والصحة والتعليم والجريمة قد يصعب العثور على أرقام شبه دقيقة منها لتقديم حلول

نموذجية لمعالجتها ، بينما فى الغرب يمكنهم الحصول على بيانات شبه دقيقة :

"على حين يوجد فى مجتمعاتنا غير المتقدمة تباين واضح مثلا بين المؤشرات الرسمية للبطالة ومؤشرات المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية .بل حتى بين فروع المؤسسات الرسمية لذات الدولة ، كما أنه لا يوجد حصرا دقيقا أو تصنيفا مفيداً للمحكوم عليهم ، حتى فى الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، تم ارتكاب ٣٤ مليون جريمة خلال عام ١٩٩٢ بمعدل ٩٤ ألف جريمة فى اليوم، ورغم هذا الرقم المخيف إلا أن قسم العدالة الأمريكي أقر بأنه لا يحصى سوى الجرائم التى تم الإبلاغ عنها . "38".

أيا كان الأمر ، فإن الأوضاع على هذه الشاكلة تعطي صورة مرعبة لمدي التدهور الأمني فى الموطن الأصلى للثورة الرأسمالية ومهد العولمة الغربية .

"فالجريمة اتخذت هناك إبعادا بحيث صارت وباء واسع الانتشار ..ففى ولاية كاليفورنيا ـ التى تحتل بمفردها المرتبة السابعة فى قائمة القوى الاقتصادية العالمية ـ فاق الإنفاق على السجون المجموع الكلي لميزانية التعليم ..وهناك ٢٨ مليون أمريكي، أى ما يزيد على عُشر السكان قد حصنوا أنفسهم في ابنية وأحياء سكنية محروسة، ومن هنا فليس بالأمر الغريب أن ينفق المواطنون الأمريكيون على حراسهم المسلحين ضعف ما تنفق الدولة على الشرطة"39" .

تلك بلاد تفرى كبدها الأمراض والانحرافات الاجتماعية ، وهي تتآكل من الداخل ، تحاول أن تستأسد على شعوبنا وتأخذنا فى أقدامها لكي تحافظ على عمرها الافتراضى فتحيا هي ونموت نحن .

ومن الملموس أن تردي الأوضاع الأمنية والمعيشية داخل الولايات المتحدة الأمريكية قد أصاب المواطن الأمريكي فى مقتل قبل غيره ، ولا يعود ذلك بفائدة على العالم ، لأن تراجع أمريكا عن ممارسة جزء ـ ولو يسير ـ من الحريات التى كانت تزعم أنها تنتشر تحت سمائها ، وتتغني بأمجادها فى الداخل والخارج ، سيجعل دعاواها والإلحاح على ممارستها بالنسبة لشعوب العالم أمرا يبعث على الرثاء والسخرية معا .

فكيف وهي لا تمارس الديموقراطية فى بلادها ، تريد منا أن نتبعها ونوافق على أهوائها ، وهي فى ذات الوقت تكيل بمكيالين ؟ ..فليست فى حياتها حرية على الإطلاق ، ولا ديمقراطية على الإطلاق ، إنما السائد فى علاقاتها مع غيرها هو نوع من ازدواج المعايير .

فى استطلاع للرأي كشفت نتائجه وكالة " أسوشيتدبرس " يوم ٢٣ فبراير ٢٠٠٥ ثبت أن فرنسا تتصدر قائمة الدول المعارضة لخطط بوش لنشر الديمقراطية، فقد أعرب ٨٤٪ من الفرنسيين المشاركين فى الاستطلاع عن اعتراضهم على محاولات واشنطن للعب دور المسؤول عن نشر الديمقراطية .

والديمقراطية التى يصر عليها "بوش "قبل السلام تعني من وجهة نظره تخلى العرب عن حقوقهم فى فلسطين والقدس ، وعدم كراهية إسرائيل والارتباط بعلاقة جيدة معها .

لا نعرف فى التاريخ من أقسر شعبا على أن يحب شعبا آخر يستنزفه و يسلب أرضه وحريته ، البديهيات التى غاب عن الولايات المتحدة أخذها فى الاعتبار وجعلها تتعامي عن الحقائق ومعطيات التاريخ وجعلها تسير وفق مبادئها التى تتبع مصالحها .

وقد اقتضت مصالحها أن تتعاون مع حكومات استبدادية ، منها العربية والإسلامية، وكانت تغض الطرف عن انتهاكات حقوق الإنسان فيها ، وفعلت ذلك مع حكومة شاه إيران السابق :

ولنأخذ مثلا آخر حالة باكستان ، إذ استقبلت واشنطن الانقلاب العسكرى هناك بنقد حاد ومطالبتها بتحديد مدى زمني ومحدد وسريع لاستعادة الديمقراطية، والأكيد أنها نسيت هذا المطلب بعد أن رأت الاتجاهات السائدة فى الشارع السياسى، وستخشى أن تؤدي انتخابات حرة إلى تشكيل حكومة ملتزمة بموقف إنتخابى راديكالى ضدها ."40".

وبقوة الزيف خلعت أمريكا عن وجهها قناع المبادئ التى صدعت رؤوسنا بها ..أعادت بسرعة فائقة تقييم موقفها من باكستان ..أوقفت الحملات ضدها ، وبعد أن كانت تطاردها على اعتبار أنها حكومة عسكرية تحكم بالحديد والنار أصبحت من وجهة النظر النفعية اللا أخلاقية حليفة من الدرجة الأولى ، فلولا الغطاء الباكستاني للقوات الأمريكية لما استطاعت أمريكا أن تسير فى شعاب وأودية أفغانستان ، ولا أن تتربع فوق ذرا جبالها وتقضى على حكومة طالبان .

فكيف نصدق بوش فى تذبذبه ومواقفه المتناقضة حين أعلن فى بروكسل "مقر الاتحاد الأوروبى " فى خطاب له عن تخليه عن سياسة واشنطن السابقة التى تتساهل مع التعايش مع أنظمة ديكتاتورية بحجة حماية الاستقرار ، وذلك بعد أن تبين أن هذه السياسة تؤدي إلى المزيد من الغضب فى منطقة مضطربة والمزيد من المآسى فى العالم الحر ؟

وحين يدعي أنه يصحح جزءاً من مساره ، نراه لا يزال يمطرنا بوابل من الكراهية والتحرشات وتكثيف حجم حملاته العدوانية ضدنا .

لهذه التقلبات السياسية والتضارب فى المبادئ والأخلاق أبلغ الأثر على حركة نمونا الاقتصادي والفكرى ، ولا أحسب أننا بذلك نلقى بالتبعية جزافا على عاتق الآخرين ، فما يجب أن نهرب من المسؤولية ، بل نؤكد أن الجميع ـ بشكل ما ـ يساهمون فى تفريخ مشاكلنا ، وأن هناك فئة ترفل فى ثياب من البذخ وهي تعيش على تفاقمها .

من ذلك ما كأنت تشنه حفنة من نوع تلك الأقلام التى نشطت فى حقبة التسعينيات لتعبر عن أفكار حكومة ذلك الزمن فى محاولة لخلخلة بنيأن "القطاع العام "الإنتاجي ، وتصور أوضاعه للمواطنين على اعتباره سبب البلايا التى حاقت باقتصاد مصر ، حتى نجحت ـ بكتاباتها ـ فى عرض وبيع ٢٥٧ شركة ومؤسسة صناعية بحوالى ٢٥٠ مليار جنيه ، بينما كان ثمنها الحقيقى حسب ما جاء فى التقرير السنوي للجان تنمية المجتمعات الصادر عن الأمم المتحدة هو ضعف هذا الثمن ثلاث مرات .

صحافة تلك الأيام ـ القومية ـ زعمت أن القطاع العام أثبت فشله وبات عاجزاً عن القيام بخطط التنمية ، وأصبح يشكل بخسائره وأجور عماله وموظفيه عبئا ثقيلا على خزينة الدولة .

بالطبع لقى هذا المسار العون والتشجيع من قبل الحكومة الأمريكية التى كأنت تنظر لنمو القطاع العام بعدم الارتياح ، ومن جهة أخرى ارتفعت وتيرة الضغط من "البنك الدولى "و "صندوق البنك الدولى "للتخلص نهائيا من تركة هذا المال العام .

وحتى يومنا هذا ، لم يدع أي مسؤول أنه فكر فى معالجة المشاكل والعقبات التى عاقت هذا القطاع عن الوصول إلى معدلات التنمية الصحيحة ، لكن الجميع عملوا على سرعة استخراج شهادة وفاة له قبل أن يلفظ أنفاسه ، وبسرعة غير متناهية تم عرضه فى المزادات "الرسمية "دون أن ينسوا وهم يمشون فى جنازته أن يلقوا مختلف المشاكل التى عصفت بالبلاد وزعزعت أمنها واستقرارها الاجتماعي والاقتصادي على الحقبة الناصرية ، فهي اللعنة التى دفعت بالبلاد إلى حبل المقصلة !

لا أحد من بين هؤلاء اهتم ببناء "الفرد "أو "المجتمع .. "كأن الهدف الحقيقى تفريغ المجتمع من فضائل الدين ومكارم الأخلاق ، ولكي تصبح عظام الأجيال الصاعدة لينة هشة بحيث يمكن الإطباق عليها ، فلا تستطيع الانتفاض والنهوض .

على حين تميزت هذه المرحلة ـ خارجيا ـ ببروز الأصولية ، وما ترتب على ذلك من تحولات ملموسة فى البلدان الإسلامية ، فمن الولاء للغرب إلى تحول ضد الحكومات الغربية ، واندلاع شبه الحرب بين الجماعات الإسلامية والغرب .

بينما كنا نحن مشغولين بمعاول الهدم فى كافة الأبنية المادية والبشرية ، كل من كان لديه "مسحة "صدئه أو قلما باهتا راح يستخرجهما ويسن حدها ..حد الفأس وحد القلم ، ليجز بهما رقاب الحياة التى كان يمكن أن تعود على الجميع بالخير ورغد العيش .

أفضت بنا هذه الأحوال للدخول فى سنوات أخرى من التجريب خروجاً من مساحة الهامش التطبيقى فيما كانوا يطلقون عليه اسم "الاشتراكية "ليدفعوا بنا ناحية هامش الاقتصاد " الطفيلى "ولم نفكر يوما فى تطبيق الاقتصاد الإسلامي ولذنا بالصمت أمام من يقول : إن المسلمين لم يقدموا تصورا كاملاً لبنيتهم الاقتصادية، وفي نفس الوقت أداروا وجوههم ناحية الغرب وقالوا لرعاياهم : "إنما نحن مصلحون"، وكانت الحياة تحت ظلالهم تغرق فى بحار التفسخ والمذهبية، وأصحاب النظريات الاقتصادية بشقيها اليميني واليسارى ، ولم نعالج أمراضنا الاجتماعية ، بالدواء الذى قدمه لنا سبحانه وتعالى، وقد جعل فى منهجه وحده دواء لكل داء وحلا لكل معضلة .

لكن الناس وقعوا فريسة لأصحاب المذاهب الأرضية وعلى عيونهم عصابات لا يكشفون ما وراءها وهم يسيرون إلى التهلكة :

"وفى طريق العسوف التى يسلكونها تقوم المجازر ، وتسيل الدماء ، وتتحطم القيم ، وتضطرب الأمور ، ثم يتحطمون هم فى النهاية ، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التى لا تصمد لها المذاهب المعتسفة "41" .

وإذا كان هناك من يبغي فلاحاً ، فعليه أن يعرف كيف نهضت الدولة المسلمة على اقتصادها حتى نعم الفقير والغني فيها برغد العيش ، ومن مظاهر هذا الرخاء أن الإسلام ربط بين حرية الفرد والمال ، وجعل هذه "الفردية "مسئولة بتكوينها "الأخلاقى " .

لقد حدد الإسلام موقف الفرد من المال ، وأنه قبل المال لابد أن تكون ذات الإنسان مؤسسة على عقيدة ، تؤمن بأن كل شيء فى الحياة هو هبة من الله "سبحانه وتعالى " .

على منهج الشريعة يحث الإسلام من بيدهم المال أن يبذلوه فى خير الناس : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] . أن كل شيء فى الحياة هو ملك لله ، وإن من بيدهم الثروة عليهم غضب من ربهم ولعنة إذا لم يؤمنوا بأن المال هو مال الله

كما وعد الحق سبحانه وتعالى من يمسكون على أموالهم بالعذاب : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤] .

والإنفاق فى سبيل الله أوسع بابا من الزكاة ، فمن المعروف أن الزكاة نصيب مقدر على ما يملكه المسلم ، أما الإنفاق فيمتد إلى كل ما يمكن أن يقدمه المسلم من عطاء ، ويحدد الإسلام منهجه القاطع فى تصنيف الثروة وكل متعلقات المال مع "جلب المصالح ودفع المفاسد ".

ومهما كانت درجات الدقة في مذاهب الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي، ومهما كانت النتائج من حيث الكم والكيف والوفرة وفائض القيمة فأن منهج الإسلام في تقرير الحاجات الأساسية للإنسان هو نمط عالمي للإنسانية لما يتميز به من عمق النظر واحتوائه لكافة مطال الإنسان في الحياة.

وكأن عمر بن الخطاب من بعد الرسول ﷺ والصديق أبو بكر رضي الله عنه يعس في المدينة ليلاً ليعرف أحوال الرعية ومن فيهم المريض ومن ينام على الطوى، فيعالج في الحال، ويطعم في الحال، وتقضى حاجته مهما كان حجمها في المال.

ولقد كان عمر بن الخطاب يعد نفسه خازنا للمسلمين، وقال في ذلك" ما من مسلم إلا له في هذا المال حق، ولئن عشت الى قابل لأذهبن الى مصر فأقضي شهرين، وفي الشام فأقضي شهرين، وفي اليمن، وأعطي من هذا المال كل محتاج، والرجل وعمله والرجل وسبقه، والرجل في حاجته.

ولا يستمرئ الإسلام عذاب الأنسان ، ولا يحقر وضعه فى الأرض ، ولا يجعله عبداً للمال والآلة ، وكل قيمة مادية وأنجاز علمي من اكتشافات الإنسان لا ينبغي أن تطمس قيمته ، وكل كسب من مكاسب الحياة يطغي على فطرته الغراء، هو هدف مخالف لغاية الوجود ، فكرامة الإنسان وسموه أولا ، ثم تجىء المكتشفات والماديات لا لتضعه تحت سيطرتها ولكن تكون فى خدمة حياته ومجتمعه .

من ثم تبرز أهمية مسئولية الدولة التى تدين برسالة النبى محمد ﷺ حين تباشر مهامها بدعم القيم وتنمية الفضائل والعمل على إذابة كل التناقضات الاجتماعية ، ومن مآثر الإسلام أنه يرى من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظريا بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحق وإزاحة الباطل ، فإن الفضيلة ـ كما يقول الإسلام ـ تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض، وتموت إذا خذلها .

ويشيح المأدلجون النظر عن المنهج الإسلامي فى دعوته للتفكير وإعمال العقل والأخذ بوسائل التطور ، ولا يذكرونه إلا فى حالة من الاستغراق فى النعاس والجمود ، ولا يذكرون مواقفه حين يدعو سلطات الدولة أن تتدخل لحماية المواطنين من فوضى الاستغلاليين والمحتكرين أقوات الناس ، والتدخل الحاسم للحد من تخمة وبطر الذين عمقوا هوة التناقض والتباين بين أبناء الموطن الواحد.

بطبيعتهم النفعية تناسوا أن أول دولة إسلامية بادرت بتوجيه النبى ﷺ لتنفيذ ولاية الدولة على المال ، ويقاس على التكليف بمداومة الاستثمار واتباع أرشد السبل ، لأن الإسلام يفرض على كل من يمارس نشاطا تجاريا وأيا كان هذا النشاط المالى ، فعليه أن يتقنه ويحسنه، فإذا عمد إلى أسلوب يؤدي إلى تلف رأس المال، أو لهبوط فى الإنتاج ، كأن لولى الأمر أن يرده عن الأسلوب العقيم إلى الأسلوب الرشيد ، وأن يلجأ إذا اقتضت الحاجة إلى استعمال الشدة ضد كل من تسول له نفسه الاستفادة من وضعه المادي وتشكيل زمرة مستعلية أو فئة عاطلة بالوراثة فى مجتمع تهدف كل تعاليم الإسلام أن تجعل منه وحدة عالمية لخير الإنسانية . "42"

إن نظرة الإسلام للمال عميقة ، ويعتبره وسيلة لنفع البشرية ، وليس غاية ، واهتمت الشريعة الإسلامية التى تمثل الجانب العملي فى الإسلام بالمعاملات المالية، أي التصرفات التى تجرى على المال وتستحوذ على ٧٥٪ من أحكام الشريعة ، وقد ذكر المال بلفظه الصريح حوالى ٨٥ مرة فى القرآن الكريم .

ومن المؤكد أن مصادر التشريع فى الإسلام أربعة ، هي :

١- القرآن الكريم ٢ـ السنة النبوية الشريفة .

٣ - الإجماع . ٤ ـ القياس .

لقد جاء الإسلام بأحكام مجملة قصداً ، لأنه لو جاء بها مفصلة لتم الإلتزام بها فى كل عصر وزمان ، وينسق القرآن الكريم بين الزكاة المفروضة شرعا ، والزكاة التى تحصل من النصارى ، فالزكاة والجزية وقسمة الغنائم نزل بشأنها آية قرآنية .

ولكي يبني عمر بن الخطاب اقتصادا إسلاميا قويا طبق قوانين الخراج على الأرض استنتاجا من آيات القرآن الكريم :

"ولم يقتصر الأمر على الموارد ، بل أن بعض أوجه الإنفاق كان يؤخذ بها رأي الصحابة وأولى الرأي ، وذلك فى تطبيق مبدأ اعتماد النفقة قبل صرفها ، فلم يكن لأمير المؤمنين ـ حين آلت إليه الخلافة ـ حق معلوم فى مال المسلمين حيث كأن تاجرا يقوت نفسه وأهله من أعمال التجارة ، وظل كذلك حتى فتحت القادسية ودمشق ، فجمع الصحابة وشاورهم فى التفرغ لأمور المسلمين ، وأن يفرضوا له من بيت المال ما يكفيه وأهله ، فاجتمعوا وأقروا بأن يفرضوا له فى السنة ستة آلاف درهم "43" .

وكان سبق وأن طبق هذا المبدأ وبنفس الطريقة بالنسبة للخليفة أبى بكر الصديق ، ولقوة المال تأثير فعال فى حياة الناس، وقد أثنى الله فى كتابه العزيز على التجار الذين لم تلههم تجارتهم عن أداء فروض الله :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] .

وكما أن المال يصلح أن يكون أداة للخير هو كذلك قد ينقلب على صاحبه ويكون شرا ، والحرص على جمعه والإلتهاء به يؤدي إلى فساد دين صاحبه وفساد محيط حياته .

ومن نواة الزكاة وما يخرج من نبات الأرض ظهر الاقتصاد الإسلامي الذى أسس أركان الدولة الإسلامية ، وفى كنفه أنعم الله على المسلمين بفتح البلدان ، بإيمان سياسى ، ديني ، يتضمن الدنيوي ، والأخروى ، يتضمن اللاهوتي والأسطورى وغير الواقعي، والاعتراف بالتعددية فى إطار حضارى .

لكن ما أفسد العيش على الأجيال اللاحقة ، هو النقل والاستغراق فى الأخذ من الآخر، ثم إننا أهلنا على مواردنا الصافية الصخور والرمال ، واتجهنا إلى

الغرب ننهل من موارده، ولا نزال نأخذ عن المستشرقين أمور دنيانا وما يخص عقيدتنا ، وبدأنا نعتد بالمصادر الغربية فى قراءة تاريخنا الأمر الذى أفضى بنا إلى ساحة التمحور حول ثقافة الغرب وأيديولوجيته :

"إن نهاية القرن الرابع عشر ، كانت المرحلة الانتقالية التى تتوجت بانتقال المركز إلى الدولة العثمانية ، بعد الصراع المرير ما بين العرب ومع الفرس والعثمانيين ، كما أن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، أدت إلى بروز وتطور المركزية الأوروبية وتطورها بديلا من المركزية العثمانية ، إذ انحسرت المركزية العثمانية ، وبدأت تتبلور القومية التركية ، كما أن انحسار الدولة العربية وضع اللمسات الأخيرة فى التطور اللاحق للمسألة القومية للعرب حيث ما زال العرب يعانون المركزية الأوروبية التى تعتبرهم كما كل الشعوب المحيطة بالمنطقة العربية ، كأطراف يتمحورون حول الذات الأوروبية سياسيا واقتصاديا أو اجتماعيا وحتى تاريخيا ، وهنا لابد من رؤية كون الاستعمار العالمي يتعامل مع الأقطار العربية المختلفة كمقاطعات، والشعب العربى يعامل كذمي بالمعني السيىء للكلمة من قبل الغرب."44" .

ولن نكون بمنجاة إذا لم نتدارك الأمر ونعود لتنقية مواردنا من الشوائب وبالإيمان لا يمكننا صنع بيئة صالحة للنمو والازدهار والتطور فحسب ، ولكن يمكن صنع المعجزات .

وما أحوجنا ـ نحن الذين نقول إنا مسلمون ـ أن نستيقن هذه الحقيقة : إن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح ، وكل من له خبرة بصياغة القوانين والمناهج والنظريات العلمية والفلسفية والأدبية لا يخالجه شك فى ما جاء به الإسلام .

ولا نريد أن نكون من الذين بهرهم بريق المال ، ولا مثل من أعشت بصائرهم اكتشافات عصر التكنولوجيا :

ولا نريد أن نكون من الذين يجعلون للقوانين الطبيعية مجالا ، وللقيم الإيمانية مجالا آخر ، ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير فى طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية ، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا .اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه .حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس ."45".

العداء السياسى .. إرث تدار عجلته ضد مصلحة الأمة

من لم يصبهم مغنم من وراء ثورة يوليو ١٩٥٢ ، لا ينظرون لها بخير .. دائما ينددون يؤكدون أنها ألجمت الديمقراطية بوثاق من حديد ..على يديها توقف النضال العمالى و الطلابى ..أحكمت الخناق حول اتحادات الطلاب ولم تترك منها شيئا إلا بعد أن أفرغته من رقدة الشباب وعناصر الطموح ، وباتت الجامعات تفرز أجيالا كسيحة لا تستطيع أن تدير عجلة المجتمع ولا يمكنها أن تتولى المسؤولية . كذلك الحال بالنسبة للواقع العمالى ، فقد شُلت إرادتهم عقب أن أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بحل الأحزاب فى مصر يوم ١٧ يناير ١٩٥٣ .

جاءت ردود الأفعال صداما عنيفا من قبل النظام ضد عمال مصانع كفر الدوار، ثم مع طلاب الجامعات عام ١٩٥٤ ، وطالبت هيئة التدريس فى جامعة الإسكندرية بإلغاء الأحكام العرفية وحل مجلس قيادة الثورة ، حتى تولى "السادات " مهام الحكم ، وحذر من بوادر الانفجار الثاني وهو يشير الى قوتين اجتماعيتين كأن يعمل لهما ألف حساب وحساب ، معتبراً أنهما تشكلان مصدر قلق دائم للحكومة ، وهاتان القوتان قال فيهما منددا :" إللى عايز يفجر موقف فى مصر يلاقى المادة المتفجرة فى مكانين ..فى الطلبة باعتبارهم شبابا مندفعا لا يتروى فى التفكير ..عايز يعيش معركة ، أما الثانية فهي العمال ".

لم يكن أحد من الطلبة ليتوقع أنهم سيذهبون إلى الجامعة صبيحة أحد الأيام من عام ١٩٧٩ على لائحة تحرم عليهم ممارسة أي نشاط سياسى داخل الحرم الجامعي ، وتناسى الكارهون ثورة يوليو ١٩٥٢ أن السادات كان يتابع بحرص كافة الإجراءات التى اتخذت فى شأن تطبيق اللائحة وليس عبد الناصر ، ولكنهم اتفقوا أنهما جمال السادات وجهين لعملة عسكرية واحدة !

يومذاك ، راج قول لكاتب ساخر دخل السجن فى عهد عبد الناصر :" عبد

الناصر جعلنا نموت من الخوف ، أما السادات جعلنا نموت من الضحك "، وسيطرت الروح المصرية على الموقفين بالكامل مفجرة ـ بطبيعتها ـ جوا من المرح ، وهي تضيف : " تعددت الأسباب والموت واحد " .

أما المثقفون فقد اتخذوا مما جرى مادة لرثاء الديمقراطية ، بعد أن أدى استبعادها من الحياة العامة إلى معظم ـ إن لم يكن كل ـ المآسى التى حاقت بالبلاد على مختلف الأصعدة .

من ذلك ما ارتكب من جرائم العزل السياسى ومنع الأصوليين واليساريين من ممارسة نشاطهم السياسى ، واستمر هذا النهج سارى المفعول دون أن تسمح الأوضاع بظهور أجيال جديدة تتولى المسؤولية ، وحتى بعد عودة الأحزاب السياسية فى ثمانينيات القرن الماضى ، استولى رؤساءها على عجلة قيادتها دون أن يسمحوا بظهور كوادر جديدة ، تلتحم بالجماهير وتساهم فى بناء مؤسسات الدولة .

غير أن ما حدث قد حدث ، ولا يمكن لأحد نكرانه ، لكن والحق يقال : إن أحداً ممن اختلف مع ثورة يوليو ـ كما اهتم بالتركيز على أخطائها ـ لم يحاول لا من قريب أو بعيد أن يميط اللثام عن ملمح واحد من وجهها الإيجابى والمؤثر فى حركة الجموع الوطنية من المحيط إلى الخليج ، ولا أحد من هؤلاء ذكر ـ رغم ضآلة إمكاناتها المادية ـ انها ناصبت الاستعمار العالمي العداء ، حيث شرعت أن تحيل نصوص " الميثاق الوطني " إلى واقع ملموس ، يشهد بأنها تصدت له خارجيا ، وعملت على تصفية أذنابه ومن ارتبط بعجلته داخليا ، كما ساعدت دولا كثيرة فى قارة آسيا وإفريقيا حتى تنهض وتنال استقلالها و حريتها .

لا أحد من بين هؤلاء يذكر أن الثورة التى حاربها الإقطاع وأذنابه كانت حريصة على إشاعة العدالة وإذابة الفوارق الاجتماعية ، بينما احتشدت حولها البوارج الحربية والقواعد العسكرية وعشرات من الأقلام المصرية عمل أصحابها تحت إمرة الاستعمار ، إلى جانب المحطات الإذاعية التى أنشئت خصيصا ـ بتمويل إنجليزي ـ لتبث إرسالها ضد الثورة وزعمائها .

من لعبوا بأقلامهم ضد الوطن فى الخارج ، يمارسون الآن نفس الدور ولكن من قلب الواقع الآن يهربون من مشاكله وهمومه ، ولقد أوقفوا حياتهم على اصطياد أخطاء وقعت فى الماضى ، ويدبجون من المقالات ما يجعلهم يزعمون أن الديمقراطية لم تكن لها مشاكل مع الاستعمار البريطاني ورجال القصر الملكي بالقدر الذى أصبحت عليه بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ويدللون على صحة مزاعمهم بالنتائج السيئة التى ألمت بالبلاد بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .

وواقع الحال أن هؤلاء لم يكونوا مؤثرين فى مجريات الأمور ، وحتى من كان منهم مندسا فى تيار المد الوطني ، فقد كانوا حريصين على مداهنة السلطة ومغازلتها ، بينما ظل الشارع المصرى المناضل الوحيد بلا سقف يغطي ظهره ، وأرهصت إرادته بميلاد ثورة عبر عنها فى انتفاضات شعبية تمثلت فى الحركة الطلابية إبأن أدوارها المتعاقبة والتى بدأت فى مارس ١٩٦٨ .

ومما يؤسف له أن طلائع هذه القوى انقسمت على نفسها واختلفت وجهات نظرها وتوجهاتها السياسية والاجتماعية ، وشلت حركتها بفعل من كانوا يمارسون عليها الضغوط لكي تمارس التقهقر إلى الخلف .

"كما أن هذه الانتفاضات قد تحركت من مناخ بعدت الشقة بينه وبين تراث النضال الديمقراطي المصرى الطويل ، فتشوشت اجتهاداتها ذات الأفق البرجوازي الصغير وارتبكت بعض خطواتها، وعجزت عن صياغة منطلقات سليمة وموحدة لنضالها."46" .

لهذه الأسباب ، ولربما لغيرها كأن لسقوط أوراق شجرة الانتفاضة أثر مؤثر بالسلب نحَى حركة المجتمع عن المسار الديمقراطي الذى كتن ينشد التجديد ، ثم أسفر عن أنتكاسة فى مشاعر الهوية ، وصدئت مشاعر الناس بسبب عدم الاهتمام بها ، وانفصلت الجامعات بهيئاتها التدريسية عن المجتمع فى سلبية ذُللت لها كافة الأمور لكي تضع بأياديها المعوقات اللازمة لتجريف العقلية التواقة للتطور من جذورها .

ومن سجلات الواقع وأرشيف ذاكرة المجتمع ثبت أن رهطا من قضاة ذلك

الزمن وممن ناوشتهم الأحلام فى حمل أي حقيبة وزاوية قد إلتقوا عند نقطة تماس بمجموعة من الأكادميين ، انصرف اهتمامهم إلى خدمة المنصب لافى خدمة البحث العلمي ، وتجلت مواهبهم فى تطبيق اللائحة الجامعية ورفع التقارير ـ يوميا لحرس الجامعة ـ بأسماء الطلاب الذين يميلون ناحية اليمين أو اليسار .

لم يصرح للطلاب بممارسة أي نشاط خارج حزام أسرة "حورس "الرسمية منذ أن ظهرت فى تسعينات القرن الماضى عقب أحداث عمليات العنف الطائفى فى صعيد مصر ، ليتوج أعضاءها كطليعة تشيع فى الوسط الطلابى السرور والمرح وإرخاء العنأن أمام انطلاقهم فى رحلات خلوية وتثقيفية خفيفة إلى مدينتي الأقصر وأسوان، وممارسة لعبة كرة القدم فى دورات يعقدونها بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك .

فى خلفية ما كان يدور هناك ، دائما تطل علينا تعاليم سيادة الرئيس محمد أنور السادات كاستراتيجية تقصى كافة القوى الوطنية عن القيام بدورها التفعيلى والمشاركة فى بناء الوطن : «على الطالب أن يهتم بدروسه ولا شأن له بالسياسة ، وعلى العامل أن ...إلخ ».

ولا يزال أرشيف ذاكرة المجتمع مفتوحاً أمامنا ليؤكد أنه على مستوى الواقع العمالى مارست السلطة مختلف الضغوط على النقابات لكي تنفصل عن مشاكلها المهنية والاجتماعية حتى تنحرف عن مسارها العمالى ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى فرض الوصاية على النقابات المهنية منذ عام ١٩٩٠ .

ومن مساوئ عصر محاربة الديموقراطية ظهور القانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ ، وكذا التعديل الذى أدخلته الحكومة عليه عام ١٩٩٥ ، فأصيبت النقابات الكبرى بالشلل ، ونجح القانون فى إقصاء النشطاء الذين كان لهم دوراً بارزاً فى مسيرة الحركة النقابية ، الأمر الذى كان له أبلغ الأثر فى ضعف التجربة الديمقراطية داخل مصر وإصابتها بالهشاشة .

وبأفعال الأجنحة المهيضة التى تتوق إلى التحليق فلا تقدر عليه ، وكرد فعل سلبى لهذه الأحداث ، ساد جو من الكمون والتربص ، من خلاله حصل

انسحاب جماعي من حلبة الحياة ..بعض القوى الاجتماعية أصيبت بالإحباط .. شريحة اجتماعية ظلت هناك تقاتل بالكلمة والقلم ، وكانت صناديق الاقتراع تشهد بإقلاع الناخبين عنها ، حيث فضلت الأغلبية ألا تسير إليها لأن نتيجة من سينجح كانت معتمدة سلفا ، وما دام هذا هو واقع الديموقراطية فى مصر فلا يبقى للإنسان سوى أن يحترم ذاته ويحتفظ بصوته لنفسه ، وبذلك انحدر المجتمع إلى ما هو أشد وأقسى حين غرق الجميع فيما يسمي بميكانيكا تهميش الوعي وتعطيل القدرات الخلاقة .

كرد فعل طبيعي واكب ذلك هبوط فى معدلات الإنتاج ، وتفاقمت مشاكل الشباب وسقوط ضحايا أخطاء التخطيط الاقتصادي الذى ساعد فى فتح أبواب الرشوة والبطالة الصريحة والمقنعة ، واعتاد الناس أن يطالعوا بين وقت وآخر على صفحات الجرائد كتابات نشر الفضائح ، وتقدمت عدة أقلام بمقترحات تقضى - لتنظيف "الوضع "برشه بالمواد القاتلة للصراصير والفئران ، وتمرست أقلام أخرى على قاعدة تبنت سياسة "تحنيط الوضع ".

لكن لا تحنيط الوضع ، ولا السير به فى خطوات عرجاء سيستأصل الأمراض الاجتماعية التى طفت على السطح بسبب غياب الديمقراطية ، وكذلك على العكس ستؤدي سياسة التجريب والمرواحة من اليسار إلى اليمين إلى تفاقم المزيد من المشاكل الاجتماعية .

لذلك يرى "الإخوان المسلمون "وهم قوة حزبية حرمت من العمل السياسى منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أنه لا سبيل لحل مشاكل المجتمع اقتصاديا وسياسيا وماديا وفكريا إلا بعودة المسلمين إلى تعاليم دينهم ، فهي المشكاة التى تنير الحياة كلها ، وتحل ما استعصى على البشرية من معضلات العصر .

فهل يمكن أن نأخذ الخطوة الصحيحة ، أم أننا - لضعف الإيمان - نخاف أن يتهمنا "بوش "ويرمينا بالإرهاب ؟ !

الصيحة التى أخرجت بعض أولياء الأمور من أكفانهم

انطلقت من عـقيرة رجل البيت الأبيـض صيحة اهتزت لهـا عروش وأركان، جاءت الصيحة تجسيداً لعنفوان العولمة و مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير . بسرعة البرق طيرتهـا وكالات الأنباء العالمية ..اجتمع حولها المحلـلون السياسيون وكتبة الأعمدة فى الصحافة القومية والحزبية ..الأمر كان جد خطير للغاية مما دفع رؤساء المشايخ وأولى الأمر للتشاور .

ظهر ذلك جليا فى سلوكيات المتوجسين خـيفة ، فصيحة رجل البيت الأبيض هبطـت عليهم مـثل الحمي غـير المتـوقعة قـبل أن يظهـر أثرها فى لغـة الخطاب الإعلامي، وفى مختلف المنابر القومـية وصحف المعارضة ، وفوجئ المواطنون بأن هؤلاء أصـبحوا بلا اسـتثنـاء ـ بين ليلة وضـحاها ـ من غـلاة المنادين بـالإصلاح والتطور.

خرجوا منذ ذلك الصباح فى ثياب المصلحين ..ادعى أحدهم بأنه يشق طريقه فى دروب الإصلاح ـ من أجل مـصلحة الوطن ـ منذ عشرين عـاما ، وإن كانت الأغلبية ومن يعتركون مع الحياة يوميا ـ من أجل الحصول على العمل والخبز لعلى يقين بأن ما ينقل إليها وتستمع إليه وتطالعه بعيونها هو الكذب الصراح .

يدللون على صحة مـوقفهم بلغة "الإصـلاح "المتفجرة فـى عقيرة هؤلاء ، وبأنها لـم تصدر عنهم تعـبيراً عن إيمان قـوى بالعدالة ، وحق الآخريـن فى البناء والمشاركـة ، وإنما ظهرت كدروع ورقيـة توهموا أنهـا ستقيهـم من شرور الآتي ، وتحفظ لـهم المقام الرفـيع ، وربما ـ فى نفس الوقت ـ تمـكنهم من الحصـول على مغانم يؤثرهم بها الاجتياح العولمى ، وانفراد ماما أمريكا بقيادة العالم .

أقـسـم "الإصـلاحيـون "على صدق نـواياهم ، وأنه قبل أن يلـوح الرئيس "بـوش "بعصاه فى وجوههم كانوا هم أسبـق منه بإلقاء الكرة فى شباك الإصلاح

منذ ما يزيد على خمسة وعشرين عاما ، والدليل :ألم يكونوا وراء النصوص المعدلة فى الدستور سنة ١٩٧١ ؟

يزعمون أنهم حاولوا - عن طريق هذا التعديل - إصلاح الوضع السياسى الذى كان قائما أنذاك والخروج بمصر من تحت مظلة الحكم الشمولى الذى بدأ بالاتحاد القومي ، ثم الاتحاد الاشتراكي ، وحزب مصر ، وصولا إلى الحزب الوطني الذى أوجد حواليه ديكوراً من المنابر فى نهاية سبعينيات القرن الماضى ، توطئة لإقامة حياة حزبية بمقاييس ترضى عنها الجهات المعنية .

إلى جانب كل ذلك يشهد الماضى بأن مصر هى الدولة الوحيدة فى المنطقة العربية التى شهدت ثلاث ثورات منذ الثورة العرابية وعرفت سبعة دساتير منذ دستور ١٨٦٦ م ، كما يؤكد "المصلحون "أنهم قاموا بإنجاز تعديل للدستور المصرى سنة ١٩٨٠ ، وفيه تأكيد على التعددية الحزبية ، وإنشاء مجلس الشورى، وجعل الصحافة هي السلطة الشعبية الرابعة .

أليس ذلك يضعهم فى مصاف "المصلحين "؟

ينقلنا موقف هؤلاء "المصلحون "إلى ما كان يدعيه "عبد الله بن أُبى بن سلول "المتسم بالإدعاء والمخاتلة ، وقد شاركه فى الأفعال الذميمة من نزلت فيهم الآية الكريمة :﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُم لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة] .

والذين يفسدون فى الأرض هم كثر فى كل زمان ومكان ، يقولون : إنهم مصلحون لأن الموازين مختلة فى أيديهم ، وكما يقول سيد قطب فى كتابه "فى ظلال القرآن " : "ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد فى النفس اختلت سائر الموازين والقيم ، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم ؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد فى نفو سهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية ، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية .

ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق :

﴿ أَلا إِنهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ .

الأمر الذى يهتم بـه هؤلاء أن يقتنع "بـوش "بأنهم ماضـون على طريق الإصلاح منذ فترة طويلة .

وإذا كان " بوش " لم يصله تقرير بإيقاع خطواتهم ، فلا ذنب لهم بل أن الخطأ يعود إلى تـلكؤ أجهزته الاستخبـاراتية حين لم تؤد واجبها عـلى كامل وجه ليعلم أن الطبيعـة حبتهم باكتساب أداة فى قوة قرون الاستـشعار ، وبذلك أمكنهم مطالعة أشباح أفكاره قبل أن تحلق فى أجواء خياله فكرة " إصلاح منطقة الشرق الأوسـط ... " إنهم بهذه الخاصية الفريدة يمكـنهم التنبؤ بكل شيء ، مع العناية بالمحافظة على وجودهم الراسخ والعتيد .

ويشهد الله كم من المرات قالوا : إن مشاكل الوطن لن تحل إلا إذا أتي دستور جديد ينفى مـا تبقى من آليات النظام الشـمولى السابق ..بالذات تـلك الهيـاكل الاقتصاديـة التى لا تزال تعمل فى مربع عـمليات " قطاع عـام ـ قطاع خـاص ـ قطاع تعاوني ، وفى هذا الصدد يكتبـون ويشيعون أن هذه الإطارات التى أصبحت حبـرا على ورق وشكلاً بلا مضـمون ، لا يجب أن تبـقى من أجل خاطر عـيون "الإصلاح "و "مصلحة الجماهير " .

لن نركز علـى ما أشيع من ضواغط خارجـية على المسؤولين ، بل سـنكتفى بالتركـيز على ما أعلنه الرئيـس حسني مبارك بشأن المـمارسة الديمقراطية ومـوافقة سيادته على التعديل الدستورى المقترح للمادة (76) التى كانت تسمح بشغل منصب رئيس الجمهورية عن طريق الاستفتاء وليس عن طريق الانتخاب .

ولا يزال الجدل دائرا حـتى هذه اللحظة حـول وضع الضوابط لضمـان جدية الترشيح وبحيث لا يسمح بأن تتحول الضوابط إلى قيود مانعة للترشيح ، وطالبت المعارضـة تحديد وتقليص سلـطات رئيس الجمهـورية الواردة فى الدستـور ، كما طالبوا بإجراء تحولات ديمقـراطية تتناول ضمانات انتخابات حـرة نزيهة وإلغاء حالة الطوارئ وإطلاق حرية تشكيل الأحزاب وإصدار الصحف .

استبشرت الجماهير خيرا ، قالت : إن مصر ستنتقل من ديموقراطية "حرية التعبير إلى ديمقراطية "حرية تداول السلطة "دون أن ينسى أحد من المواطنين مواقف السلطة حين ادعت غض الطرف عن مخلفات الحكم الشمولى "مع أن معظم قيادتها كأنوا تروسا فيه "ويبدو أنهم شعروا بأن ذلك قد يدمغ حياتهم بوصمة تدين موقفهم "الإصلاحي "الساعي نحو التخلص من حياة الانغلاق القديمة ، وهي تتنافى تماما مع شروط لعبة الليبرالية والقوانين المنظمة لآليات الانفتاح والخصخصة .

وفى هوجة الادعاء بالوقوف إلى جانب المصلحة العامة ، وفى مجال المال والاقتصاد أصدروا قرارا يقضى بتحرير سوق الصرف الأجنبية والسير قدما فى استكمال كافة الخطوات الرامية لتحرير قطاعات النقد دون تأخير .

انطلاقاً من هذه الأرضية ، يؤكدون :لم يكن "بوش "ظهر فى حياتهم ولا أطلق صيحته المشهورة حول مشروع إصلاح الشرق الأوسط ، وإنما هم مضوا على طريق وضع الضوابط لإعادة استخدام القروض الأجنبية ، ثم تقديمها للمواطنين من أصحاب المشروعات الصغيرة ذات العائد السريع ، وروجت الأجهزة الإعلامية، المرئية والمسموعة والمقروءة ، لفكرة أن الأرباح التى تحصل عليها من هذه المشاريع ستمكن البنوك من وضع سقف لها يغطي المراكز المكشوفة للعالم الخارجي ، وسوف تكون بمنأي عن حدوث أزمة مديونية .

ومضوا صعوداً بوتيرة الأعمال المعبرة عن إرادة وإدارة شبكة النقد الاحتياطي، آملين فى تحقيق موارد إضافية ، بداية من التفكير فى ربط الجنيه المصرى بعجلة العملات المتمثلة فى اليورو والجنيه الاسترليني والين الياباني والدولار الأمريكي .

ثم استغرق الإصلاحيين الوقت حيث أنصب اهتمامهم على حل مشاكل عملاء البنوك المتعثرين فى سداد المليارات من الدولارات .. تفتقت القرائح عن منابع "الجنان "و "الطبطبة "بعد ذلك أذنوا لهم بفترة سماح ليتمكنوا خلالها من الوقوف مرة أخرى على درب قافلة الاقتصاد ، دون النظر إلى عواقب جرعات الحنان "الكريمة جداً "وما يترتب على ذلك من مآس تقع على رؤوس أصحاب

الدخول المتواضعة حين يعانون من تأثر أوضاع الجنيه المصرى ، وانخفاض سعر الصرف، فيجر هذا وذاك ارتفاعا مروعا فى أسعار السلع الضرورية.

وكان ما أخذه المستثمرون باليمين من خزائن الدولة ، يحصل على أضعافه المسؤولون بالشمال من فارق الأسعار وعوائد الضرائب ، ويصبح الواقع نهبا للمستثمرين ورجال "الإصلاح "ومن يبحثون عن فائض يغطون به هامشا فى عجز ميزانية الدولة .

بخصوص تهريب الأموال ، وفى إطار محاربة الفساد الاجتماعي ، بادرت مصر ، رعاها الله ، بالتوقيع على اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد ، وقد وافقت لجنة الشؤون العربية والخارجية والأمن القومي بمجلس الشورى على قرار رئيس الجمهورية رقم ٣٠٧ لسنة ٢٠٠٤ ، ووقع على هذه الاتفاقية حتى الآن ١١١ دولة، لم تدخل حيز التنفيذ بعد،إذ لابد أن يتم التصديق عليها من ٣٠ دولة،غير أن الدول التى صدقت عليها حتى الآن لم تتجاوز ٩ دول فقط ، هي : الجزائر، السفادور، كينيا ، أوغندا ، ناميبيا ، ملاوى ، سيريلانكا ، مدغشقر، المكسيك .

والملاحظ أن الدول التي قامت بالتصديق على هذه الاتفاقية هي من الدول النامية ذات الاقتصاد المتدني والذى يؤثر فى نموه عوامل الفساد .

نذكر مرة أخرى أن مصر وافقت بالفعل على هذه الاتفاقية ، لكنها لم توقع حتى الآن بالتصديق على بنودها ، ربما يعزو سبب ذلك إلى أنها ليست واحدة من الدول التى يؤثر فى نمو اقتصادها عوامل الفساد "!!"وربما يحدوها الأمل فى عودة الهاربين بأموال الشعب عن طواعية ، فتغفر لهم قبل أن يقادوا بأسوار من حديد بمعرفة الأنتربول الدولى .

وحول المتعثرين الذين لم يهربوا بالقروض وآثروا البقاء داخل البلاد ، فقد حظوا برضى وموافقة البنك المركزي على تسوية أوضاعهم لدواعي وطنية وإنسانية، على ضوء :

- تصحيح أوضاع المسار الاقتصادي .

- من أجل الحفاظ على حقوق العاملين فى تلك المشروعات والذين يزيد عددهم على المليون .

ومن ثم يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن مشاكلنا الاقتصادية تعالج بأسلوب الإعلام وإعلانات الدعاية المدفوعة الأجر ، وما من شك أن المستثمرين استفادوا من هذه الأوضاع ، فراحوا يدلون بالأحاديث الصحفية مؤكدين أنهم حين قبلوا بالعودة لممارسة نشاطهم ، لم يكن وراءهم سبب إلا الأخذ بيد الاقتصاد المصرى المريض ، وثانيا لمساعدة مليون عامل تتهدد حياتهم البطالة فيضيفون من المشاكل على كاهل الحكومة ما لا يحتمل .

أحد المستثمرين بلغت مديونياته بفوائدها ٢,٥ مليار جنيه ، علق على مفاوضات الحكومة معهم قائلا فى ابتهاج :

"الحكومة الحالية بقرارها التفاوضى معنا منحت لنا طريق الأمل لمواصلة مسيرتنا وإقالة عثرتنا ، وهذا ما سيجعلنا ندخل فى تحد مع أنفسنا لرفع الطاقة التشغيلية للاستثمارات ، ورفع قدرتنا التنافسية ، واستعادة أسواقنا الداخلية والخارجية ."47"

وكان لرئيس جمعية مستثمرى برج العرب رأي أخذ وجهة ربما لم يقصدها حين أشار إلى جانب سلب ونهب أموال الدولة :

إن ما تم خطوة إيجابية طالب بها المستثمرون منذ سنوات لحل مشكلات المتعثرين خاصة الجادين منهم الذين لم يأخذوا أموال البنوك ويهربوا ."48" .

أما رئيس جمعية ٦ أكتوبر ، فقال :

إن الأسلوب الذى تتبعه الحكومة للتفاهم مع المستثمرين لتوفيق أوضاعهم هو الذى سيعيد إليها أموالها ، ولكنها لن تستفيد فى حالة الإغلاق والحبس ، كما أن القوانين وخاصة الضرائب ستعطي تنازلات لمتأخرات الضرائب عليهم "49" ..

والله ..عمر شعبنا ما شاف مثل هذا الدلع ، ولا عمره شاف حكومة فى العالم تطبع على خد الفشل الذريع "بوسة .. "تسقط الضرائب عن هؤلاء لأنهم يستحقون منها العطف ، أما الأجراء والفلاحون وأصحاب الدخول المتواضعة من

الضرورى أن يدفعوا ولا داعي للتذمر ، وإن كان على الضرائب التى تحصلها منهم فهي تعود إليهم مرة أخرى فى صورة خدمات ..وحدات محلية ..طرق وكبارى ..أنفاق تحت الأرض ...مستشفيات للأمراض العقلية ..مستشفيات لعلاج أمراض الفشل الكلوي .

بعد أن طالع الملايين معي كل هذه الإنجازات أدركت أننا ظلمنا الحكومة .. يكفى أنها تعالج المرضى وتطبطب على اللصوص يمكن ربنا يصلح حالهم !

وإذا تركنا محيط المال والاقتصاد والضرائب وفكرنا فى الفشل الكلوي الذى خطط لانتشاره بين شعب مصر رجالا ونساءً على يد مسؤول اتهم بالتعامل مع خبراء إسرائيليين فى الزراعة ، وتحت وهم تنمية الزراعة ، دمروا الأرض بمواد كيميائية مسرطنة ، والنتيجة ظهور آلاف وحدات ومستشفيات معالجة الفشل الكلوي ، ثم خرج سيادة المسؤول من بوابة كبار المسؤولين فى مطار القاهرة محلقا على جناح طائرة خاصة إلى الولايات المتحدة ، ولا يستغربن أحد فينا إذا ظهر يوما على أرض إسرائيل .

وعلى طريق التلهي بحياتنا واعتصار ما فيها استولى ٦ من كبار المسؤولين بوزارة الزراعة على مبلغ بسيط لا يزيد قدره على ١٠٠ مليون جنيه فقط بزعم استصلاح ١٤ ألف فدان بجنوب بورسعيد ومنطقة الحسينية بالشرقية والمشروع ممول من "صندوق البنك الدولى "و " الهيئة الدولية للتنمية الزراعية " .

"وكشفت تحقيقات الرقابة الإدارية عن أن المتهمين صرفوا مبالغ من أموال المشروع تحت حساب استصلاح الأراضى ، وثبت أن هذه الأراضى مستصلحة وتم تسليمها لشباب الخريجين منذ عام ١٩٨٠ . "50" .

والغريب فى الأمر أنه مع ارتفاع وتيرة الفساد الداخلى على يد من لا يجوز لهم حق الانتساب لهذا الوطن نباغت بعسف المؤسسات العالمية ، ففى اتفاقية التجارة العالمية بنود تعطي للدول النامية الحق فى إنتاج دوائها والحفاظ على صحة مواطنيها، لكن الشركات الأمريكية تحاول العصف بصناعة الأدوية المصرية واحتكار

أسواقها ، مع الضغط المستمر على مصر لإيقاف تداول حوالى ٥٠٠ صنف من الأدوية المصرية فى السوق المحلية .

تصدي بعض الكتاب لعمليات الاستغلال والسلب المنظم ، زعموا أن أسباب الفساد تعود إلى تهميش الحضور الشعبى الإسلامي ، وهذا ليس مطلب الحكام فحسب ، ولكنها رغبة الولايات المتحدة الأكيدة فى إزاحة الإسلام عن الساحة ؛ لأن من مظاهره ـ حسب رؤيتها ـ التعصف الديني ، وفى ذلك تهديد للغرب وللحداثة .

ولكي لا نكون مغيبين عقليا فإن الولايات المتحدة الأمريكية ، ومع دعوتها إصلاح منطقة الشرق الأوسط لا ترضى عن ما يدعيه العرب من إصلاح يجرى على أيديهم فحسب ، بل أنها تشجعه حتى يحتقن الواقع وينفجر السخط وتندلع الثورات ، خاصة وأن أمور "الإصلاح "عولجت بين أروقة الجامعة العربية ، وتجاوبت مع هذا الاتجاه مختلف المنتديات والمؤتمرات الدولية والإقليمية فى الإسكندرية وعمان وصنعاء والرباط ودبى .

"وكلها بدون استثناء عقدت تحت مظلة الحكومات وبتشجيع منها وعملت على الترويج لفكرة الإصلاحات ، وفى هذا السياق جاءت خطوات من نوع تأسيس مجلس حقوق الإنسان والمرأة مع تطوير مناهج التعليم والحديث عن ضرورة تطوير الخطاب الديني ، وعلى المستوى غير الرسمي لم يكن ثمة شك على الإطلاق فى أن القضية باتت ملحة وضرورية على الأقل بمقياس ما تنشره الصحف العربية وتبثه الفضائيات وبعض المحاولات اليائسة هنا وهناك من أجل هامش أكبر للتعبير ، ويمكن فى هذا الصدد الإشارة إلى رسالة بعثت بها جمعيات حقوق الإنسان فى بعض دول الخليج للقمة الأخيرة فى المنامة طالبت فيها القادة بضرورة إقرار الديمقراطية والسماح بأحزاب سياسية وتداول السلطة "51".

وقبيل هذه الاجتماعات قطعت الحكومات العربية ـ فى السر والعلن ـ أشواطا طويلة صوب الشاطئ الغربى ، وكثفت ـ مخلصة ـ كل الجهود لكي تبدو نقية السريرة ، لعل الله يضع الحب فى قلوب جماعة الصقور الأمريكية والمحافظون

الجدد ، فينظرون إلى مجهوداتها فى عالم الإصلاح بعطف وإحسان .

من عادوا من هناك ، تلاعبوا بالألفاظ أثناء الإدلاء بتصريحاتهم الصحفية.. أوهمونا وهم غرقى فى نشوى العشق والهيام ، أن الغرب الساطع القوى لا يكن للمسلمين غير مشاعر الحب ، وأن الغرب يؤكد فى أحاديث قادته أنه يهيم عشقا وافتتانا وتقديراً لشرقنا العربى ، ولا يدخر لأمجاد أمتنا سوى الاحترام .

يقولون ـ أفادهم الله ـ أكثر من هذا ، ولا يدرون أن أقوالا مثل هذه صيغت بمعايير حقنة التخدير، وأن الغرب حين يصبها فى أسماعنا كان يرمي إلى تصويب سهم فى صدورنا ، تقليصا لأي دور ينمو ويكون مناؤا له .

كما يساعد فى تحقيق ذلك الاتفاقيات الاقتصادية التى لم يعد يوقعها مجانا ، وأن أي اتفاقية يبرمها مع دول المنطقة إذا لم يحقق من ورائها ما يدعم استراتيجيته وتكون مع أمن ومستقبل إسرائيل ، فلن تلق منه القبول والموافقة .

فإذا أضيف إلى هذا الاعتداد والعماء والغطرسة آلية الاندماج بتكتلها التكنولوجي والمعلوماتي وهي بحوزة أمريكا ـ ما فى ذلك شك ـ فلا يبقى أي درع يقى الدول التى لها ظروف بلادنا العربية إلا أن تكون مرشحة للوقوع فريسة فى قبضة الاستهلاك غير المنتج للمعرفة والمعلومات وتحت مظلة الولايات المتحدة الأمريكية التى تعتبر نفسها حامية مصالح "الجماعة العالمية . ".

لكن على الرغم من تفوقها المادي والعسكرى فإنها تشعر بالضعف والقلق حيال بعض الأفكار ..أن فكرة واحدة إنسانية يمكن أن تشكل ضغطاً عليها أو تهديداً لمرامي إمبراطوريتها .

حدث ذلك بالفعل حين استشعرت عدم الاطمئنان للرخاء الذى يمكن أن يغمر بلدان قارة آسيا ، بالذات عندما أكد الرئيس الماليزي السابق محمد مهاتير " : أن ماليزيا الآن فى وضعية تقدم فيها خيارات جادة للترتيبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية العالمية المهيمنة ".

هذا النوع من الأفكار الذى لم يدخل بعد حيز التطبيق لا تدعه أمريكا يمر أمامها مثل سحابة عابرة ، إنها مثل ناقوس يقرع أسماعها بالخطر ، فى التو تبدأ

فى رصد كافة أفكار الحركات السياسية فى القرن العشرين ، وعلى الرغم من أنها اكتشفت بالتحليل والتمحيص أهداف مختلف الأيديولوجيات إلا أن ذلك جعلها أكثر شراسة فى استخدام مفردات أيديولوجيتها هي ، وحين توجه بوصلتها دائما صوب الشرقين الأدني والأقصى ، مع غض الطرف عن أيديولوجيا القرن العشرين والتى تشمل :

"الليبرالية الاشتراكية ، الفوضوية ، النقابية ، الماركسية ، الشيوعية ، الديمقراطية الاجتماعية ، المحافظة ، القومية ، الفاشية ، والديمقراطية المسيحية، جميعها تتقاسم شيئا واحدا مشتركا : أنها منتجات الحضارة الغربية ."52".

لا خطورة يشكلها هذ المنتج الغربى قلبا وقالبا على الأوضاع الأمنية الأمريكية، لكن الذى يقض مضاجعها ويتهددها تراه يكمن فى تلك الأفكار خاصة إذا كانت تصدر عن عقلية مسلمة ، فأي ارهاصة أو شيء من نوع تلك الأفكار نراها تتعامل معها من باب الاحتراز والحيطة ـ بوضع الإصبع على زناد البندقية ودفع الأسطول السادس والسابع وحاملات الطائرات فى البحار والمحيطات تخوفا من انتشار الفكر الإسلامي .

الأمر الذى عمق لدي "بوش "الإيمان بأيديولوجيا الإرهاب واعتناق سياسة شعارها المبادأة دفاعا عن عظمة الولايات المتحدة الأمريكية بدون أي تردد ، وأصبح الإعداد للحرب وشنها بلا هوادة وبلا حدود زمنية أو جغرافية هي الوسيلة المثالية لتحقيق أمن ورفاهية الشعب الأمريكي الذى لا يمكن لأي قوة فى العالم أن تحرمه من ثمار إمبراطورية الحضارة الغربية :

"لأن الغرب هو الحضارة الوحيدة التى لها مصالح جوهرية فى كل حضارة أخرى أو إقليم آخر ، ولها القدرة على التأثير على سياسات واقتصاديات وأمن كل حضارة وإقليم . المجتمعات من حضارة أخرى تحتاج إلى المساعدة الغربية لتحقيق أهدافها ومصالحها "53".

ترهات تصاغ بقوة منطق السيطرة ، وهي تبحث دائما عن مغامرين ومحترفين يعرفون كيف يسيطرون على رقاب شعوبهم "لتحقيق أهدافها ومصالحها ".

كل ذلك يحوطنا براً وجواً وبحراً ، مع احتشاد إعلامي معولم ..فضائى .. مقرؤ .. مسموع ، بينما " الإصلاحيون "هناك .. الاستثماريون هناك .. تجار المواشى واللحوم لا يزالون يرتعون فى غيطان البرسيم والخضرة .

لكن لا أحد ينسى هموم هؤلاء الناس الحالمين ، ولا أولئك الذين تصلبت نظراتهم على الأرض ، كأنهم يحفرون بها الأعماق بحثا عن نبت أخضر ، أو إمام يُفعِّل قضايا الأمة ، بعد أن أقلعوا عن التفكير من زاوية المتلقى ، المحاصر ، ومن ينتظر أن يهبط عليه الوحي من خارج سمائنا .

لكن ..هل يسمح الغرب لنا أن نكون..؟

سؤال لا ينطوي على التعجيز ولا يرهص بدواعي الفشل ,لأنه لا يوجد واحد في البشر ولا أي قوة في الحياة مهما تعاظمت قدرتها أن تمنح إنسانا شهادة بميلاده وبقائع.

إذن من حق أمتنا أن ترود جميعا الأفاق .. تستكشف أصالتها ..قد تتعرض لمحاكات ومشاحنات ..لا بأس فلناس من قديم منقسمون إلى قوتين :قوة تتشبث بالتراث ، قوة بالتجديد أو ما أطلقوا عليه :الحداثة وسبق أن تكلم عن هاتين القضيتين كل المهتمين بشؤون الإسلام والحضارة.

"وهناك من ذهب الى أن المجتمع التسلم ليس بحاجة الى من يحتذي النموذج الغربي لأن الإسلام يمكن أن يكون نموذجيا عصريا من خلال الاجتهاد, وخصوصا أنه لايعادي العلم ".

ولا يعادي الإسلام البشر ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات :١٣] ، من هنا كانت عالمية الإسلام شيئا آخر ليس مدفوعا للاستيلاء على شعب من الشعوب ، ولا يضع على اجندته السياسية شراهة الحصول على آبار النفط وليست لديه اطماع في الحصول على موقع استراتيجي في العالم ,ولم يكن يحفز المجاهدين الولين إلى الجهاد طمعا في خفض من العيش ورخائه : وإنما كان ولا يزال يرنو إلى إقامة بناء إطار حضاري عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحي يسمو بالفرد والمجتمع عن الدنايا.

ومن يتابع الحملات التي يشنها الغرب على المسلمين يتضح له أن الأزمة التي بين الشرق والغرب ، منذ الحملات الصليبية الأولى- ليست أزمة دين في الأساس، ولكنها أزمة توسعات استعمارية وأطماع اقتصادية وعسكرية ,بعد ذلك

طفت على سطح الحياة "قنبلة الدين "التي فجرتها أمريكا في صدور العرب عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م .

وهى الآن تشعل اتون الحرب في العراق بعد أن ثبت بطلان حجتها في العثور على اسلحة الدمار المزعومة وباسم محاربة الارهاب وتعقب رموزه تدير المعارك في المدن وتقتل المدنيين في المساجد وتدنس المقدس في الأديان.

ندد "بطرس غالي "الأمين السابق للأمم المتحدة بما يجري على أيدي الشمال ضد الجنوب قائلاً : " أن كوكبنا يخضع لضغط تفرزه قوتان عظيمتان متضادتان: اهما العولمة والتفكيك".

وبالدليل الذي ثبت أنه لا يدع مجال للشك تقوم الولايات المحدة الأمريكية بتفكيك أوصال بلدان العالم في محاولة منها لإعادة تركيبها بمزاج أمريكاني صرف مستندة على قاعداتها النووية والنترونية حالمة بالسيادة على عالم لا ترتفع فيه سوى " أصوات الأسواق " وشبكة المعلومات البنكية وإدارة "صندوق البنك الدولي "الذي قال فيه خبير الاقتصاد الدولي "ساخسن" :"هذا الصندوق ما هو إلا سوى واجهة للحكومة الأمريكية " .

شيء غير منطقي يحكم علاقة الأشياء ببعضها البعض ومع ذلك فهو يشكل واقعا فادحا يقع على عاتق الشعوب فمن ذا يتصور أن ثلثي دول العالم قد بلغت مديونياتها لصندوق البنك الدولي مئات المليارات من الدولارات؟ ..من ذا يتصور أن ثلثي دول العالم قد يوقع الحجز عليها وعلى مواردها بمقتضى أحكام تصدرها محكمة العدل الدولية أو قرار تستصدره أمريكا من الأمم المتحدة التي تحولت الى كيان هش تتحكم في أعصابه.

وتتساقط الدول في قبضة الاستعمار الجديد ـ اذا لم تكن وقعت بالفعل ـ استيفاء لمديونيات البنك الدولي.

بسبب الدين الخارجي والفساد الداخلي سيطرت النوازع الفردية والحرية المطلقة على الأسواق وعلى المستوى الخارجي فقد بلغت الفوضى المالية العالمية مداها, ويقال : إنها اقتربت من نهايتها :

"إذ مهما طال الزمن فلا مناص من إخضاع أسواق رأس المال من جديد لرقابة الدولة الصارمة فالدينامية الذاتية الفوضوية السائدة في عالم المال قد صارت ترعب حتى المتعاملين في هذا العالم أنفسهم .ففي هذا العالم الذي تتشابك

فيه عبر أجهزة السيطرة الإليكترونية على العمليات (cybetspace) الملايين من أجهزة الكمبيوتر ,أخذت مخاطر شبيهة بمخاطر التقنية النووية تزداد وتتراكم"54" .

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية والمرابون اليهود هم الذين وضعوا قواعد تنافسية أسواق رأس المال إلا أن قوة اقتصاد أمريكا بدأت في الهبوط ,فما عادت هى التي تتحكم فيها وحدها ففي أول مارس ٢٠٠٤ أعلن الاتحاد الأوروبي رفعة التعريفة الجمركية على جميع الواردات من المنتجات الأمريكية ,ولايزال الاتحاد الأوربوي يرفعها كل شهر بانتظام وإلى أن يلغي الكونجرس الدعم للمصدرين الأمريكيين بحيث يجعلون المنافسة لصالحهم مع أوروبا.

وهو دعم قررت منظمة التجارة العالمية أنه غير قانوني ورغم هياج الكونجرس إلا أن رجاله سلموا بالأمر الواقع في النهاية ,فقد أدرك الأمريكيون أن التجارة على مستوى العالم والتي سعوا إلى إيجادها بهذا النحو وظلوا سادة لها لعقود إلا أن الوقت قد حان لتغيير أوضاعها.

وعلى الرغم مما جرى لعمليات النمو الاقتصادي الأمريكي على الساحة الأوروبية ، إلا أننا لا نسيغ مقولة أن الأمريكان ما غدا بإمكانهم أن يفعلوا ـ في مناطق أخرى من العالم- ما يحلو لهم.

ولا سبيل أمامنا للخروج من بين براثن التقنية النووية والانتصار عليها سوى العمل الجاد للحصول عليها وتفعيلها بشكل يعود على الشعوب العربية والإسلامية بالخير ، وإن كان ذلك أمر بالغ الصعوبة غير أنه ليس مستحيلاً.

حسبنا ،كعرب ومسلمين- أن نأخذ بسياسة عربية إسلامية موحدة إزاء التكتلات التي تحكم الخناق حولنا مع تبني سياسة علمية مشتركة في مجال إطلاق أقمار صناعية تزودنا بالمعلومات "وتفيدنا في حسن إدارة الموارد الطبيعية والبشرية بما يتلائم مع أيكولوجية البيئة العربية" .

ومع أن هناك من الشواهد ما ينبئ بوجود قوى دولية لن يرضيها أن نكون أصحاب سيادة ونرسم خطى مستقبلنا ، وبحوزتنا دليل على ذلك فيما تشنه أمريكا ، حاليا- من حملات دولية ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية تبلغ مراحل الأعداد والتجهيز لإعداد حملة صليبية مستهدفة تدمير مفاعلها النووي ,حفاظا على أمن ومستقبل ربيبتها إسرائيل ولأجل "عالم جديد "ترسي قواعده.

"إن النظام الدولي الجديد يعني سيطرة اليهود والنصارى على المسلمين وإذا استطاعوا بعد ذلك السيطرة على الكونفشيوسيون أصحاب الديانات الأخرى في

الهند- الصين- واليابان- وهكذا يقول النصارى واليهود الآن كما صممنا على سحق الشيوعية يجب أن نصمم على سحق الإسلام .. والآن نرجو أن تبدأ المواجهة بين الصين التي هى على رأس المعسكر الكونفشيوسي وبين أمريكا على رأس المعسكر النصراني الصليبي."55".

لكن لا يغرن أحد مثل هذه الأقوال ولا يظن أحد أن أمريكا في غفلة عن ما يمكن أن يصنعه مثل هذا التحالف في مستقبلها ، وقد رأينا بوش يطير في نهاية فبراير ٢٠٠٥ إلى الاتحاد الأوروبي في بروكسل ليناقش الأوربيين في طرق الوفاق التي تجمع شمل الكبار وتعيد تقسيم الغنائم بينهم.

فالتقارير التي وصلت إلى يدي "بوش "بعد أن صدَّر للعالم العربي قضية إصلاح منطقة الشرق الاوسط الكبير وبعد حالة التوتر التي رانت على العلاقات الأمريكية الأوروبية عقب غزو العراق جعلت بوش يرى أن مصلحة أمريكا أن تعيد جسور الثقة بينها وبين أوروبا خوفا من أن تتجه "أوروبا "مستقبلاً إلى إقامة تحالف مع الصين وروسيا والهند التي يعيش فيها وحدها ٣٥٠مليون مواطن هندي مسلم.

وظهرت بوادر عودة العلاقات الحميمة بين أمريكا ودول أوروبا في ضغطهم على سوريا ومطالبتها بفك ارتباطها بإيران وحزب الله مع سرعة إخراج قواتها من لبنان وتحميل سوريا مسؤولية الفشل الأمريكي في العراق.

وما دامت نيران الحملات الصليبية تدير فوهات مدافعها نحونا ,فعلينا كمؤمنين بكتاب الله وهدي نبيه الا نُفرغ كما تريد أمريكا منا دلالات آيات الله الكريمة من مضمونها ، بل لابد أن نستفيد من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٤] وأيضا بقوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

نقول هذا من منطلق أننا لسنا دعاة حرب بل دعاة سلام ، لكن القهر الذي تُجرعنا الولايات المتحدة الأمريكية من كؤوسه لابد أن يكون له نهاية ، وبدلا من

أن يكون بيننا وبينهم لغة مشتركة للتحاور ,أرادو ها حربا شعواء وصداما لا مفر منه، انطلاقا من نظرة ثيوقراطية روجتها كتابات "هنتنغتون "حيث أكد : إن الديانة عنصر أساسي للتمييز بين الحضارات وأن الصراع واقع بينها لا محالة." .

وفي هذا السياق ، وفي حمأة رذائل الإعداد لغزو أمتنا العربية ،لابد أن نأخذ كلام " إبرامس " بعين الجد خاصة وأنه أحد كبار مساعدي "بوش "وهو يهودي, أفصح عن النوايا الخبيثة وأهمية العلاقات الوثيقة بين هؤلاء النصارى واليهود حاليا ومستقبلاً.

"إذ إن على اليهود فهم أن المسيحيين المحافظين هم الذين سيدافعون عن إسرائيل في المستقبل لأنه لن يكون هناك عدد كاف من اليهود في أمريكا ..وفي ظل إدارة بوش أصبح المسيحيون الإنجيليون أكثر قوة سياسية مؤيدة لإسرائيل ..وفي بعض الأحيأن يساندون فكرة إسرائيل الكبرى اكثر من اليهود باعتبار أن ذلك مطلبا دينيا."56" .

وما يسترعي الانتباه ويثير الفزع في ذات الوقت أنه خلال السنوات التي تعرضت فيها بلادنا لاعتداءات إرهابية ، نسجت خيوطها في الخارج إذ بصموئيل هنتنغتون ومن يشايعونه ينثرون بين سطور كتاباتهم رؤى مظلمة ,تدعي بأن "ولع المسلمين بالعنف والقتال من حقائق القرن العشرين ,ولا يستطيع المسلمون ولا غيرهم نفيه" .

ومن يقلب البصر في وقائع الحياة يستطيع الوصول بسهولة إلى حقيقة لا يشوبها أدنى شك ,تؤكد أن العرب والمسلمين ليس لهم علاقة تاريخية لا بالعنف ولا بالإرهاب ، وأن إرهاب الدولة قد ظهر في القرن الثامن عشر على يد الإمبراطورية البريطانية ,وقد ذاق منه العرب والمسلمون الأمرين، وحين ظهر الإرهاب في القرن التاسع عشر لم يكن المسلمون هم الذين اخترعوه ,بما في ذلك الأعمال الإرهابية التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات على شعوب وحكومات كوبا وفنزويلا ,وقبل ذلك أيرلندا وسيرلانكا، ولم يكن المسلمون مسؤولين عن الذي جرى لليهود إبان الحرب العالمية الثانية.

إن حدود الإسلام ليست دموية كما يدعي "هنتغتون "لكنها الإمبرالية الغربية هي التي تسعى لإخضاع العالم بأسره لمشيئتها ,وأنها كانت السبب الوحيد وراء من لقوا حتفهم في القرن الماضي بسبب الحروب والمجاعات ولا يقل عددهم عن

١٦٥مليون نسمه .

وفي الوقت الذي يدين فيه العالم بأجمعه عملية إبادة اليهود على يد الأوربيين لم يتجرد البروفيسور هنتنغتون من الشرور ويذكر في كتاباته أن اليهود الذين كانوا يعيشون في مصر لم يمسسهم أحد بسوء ، بل كأن لهم حق التنقل وحرية العبادة وممارسة مختلف المهن وحق التملك.

ولماذا تعمد بعض الكتابات إلى تصوير العرب والمسلمين في شكل بربري متخلف؟ ..ولماذا غفلوا على سبيل المثال لا الحصر عن الموقف النبيل الشجاع للعاهل المغربي الراحل محمد الخامس، وإصراره على رفض عروض النازية بتصفية اليهود واضطهادهم؟.

كان الملك محمد الخامس، شأن كل عربي وفيا لتقاليد العروبة والإسلام، ويعتبر رفضه لما كان يجري في "الهولوكست "أحد وجوه الحضارة العربية في إنسانيتها وطهارة يديها واحترامهما لمختلف الأعراق، ولن نعقد مقارنة بين هذا وبين ما جرى للمسلمين على أيدي الصليبيين في الأندلس حين كانوا يقذفونهم من الطائرات ويشعلون النيران في أجسادهم، ولكننا نؤكد استمرار معركة العرب والمسلمين مع الصهيونية وليس مع "المحرقة".

نندفع بايمان نحو هذه الغاية : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ الآية [البقرة : ٢١٦].

في معظم الأحيان نضطر لخوض معارك تجرنا إليها تلك القوى التي لا تصدر عنها إلا الأعمال التي تعبر عن العطش الدموي وإمحاء هويتنا، ومن منطلق أن ذلك ينضوي تحت مسمى محاربة الإرهاب.

يشير إلى هذا المنهج الدموي التقرير الصادر في نهاية عام ٢٠٠٤م عن معهد «زغبي الدولي » ومركز بيو جالوب للأبحاث، ويتطرق التقرير للإسلام بقوله:

"إن الصراع الإسلامي الداخلي والخارجي حول المبادئ والهوية والتغيير هو الساحة الأساسية التي يظهر فيها قدرة الاتصال الاستراتيجي، وأن المحللين

يختلفون في شأن الأسباب والنتائج، ولكن هناك اتفاقا عاما على أن الإرهاب وشبكات الإرهاب هى أعراض لتغيير أكبر داخل الإسلام، وهى استمرار للصراع الذي شهده القرن العشرون بين القدرة على التحمل وبين الديكتاتورية والاستبداد. أزمة الإسلام يجب أن يتم فهمها كتحد للفكر ويجب التعامل معها بهذا الشكل. "

ويحدد التقرير عدة ملاحظات هامة يجب أن نأخذها في الاعتبار " في مجال الاتصال الاستراتيجي وجميعها تأتي في قلب الصراع الإسلامي"، وهى:

إن التصدي للأفكار يحدث ليس فقط في الدول العربية أو الإسلامية بل في مدن وقرى أوربا وآسيا وإفريقيا، وفي شمال العالم بأكمله.

*إن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وتجاه العراق في ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ دمرت مصداقية أمريكا وقدرتها على الإقناع.

*إن المناخ العام الذي يعمل فيه الإرهابيون يتم دعمه بوسائل دينية واستراتيجيات إعلامية معقدة وتكنولوجيا معلومات متقدمة.

*الأنظمة التى تعتمد على القبول قد لا تتحمل وتعارض سياسة أمريكا.

*نحن نحتاج إلى تأثيرات أكثر تعقيداً.

*معظم المتعاملين مع الاستراتيجية يواجهون خيارات صعبة وأولويات مختلفة تحتاج إلى دعم لاستخدام أدوات القوة المختلفة .

إن دعم القوة تعني أن تكون أمريكا مترامية الأطراف، لاحواجز جغرافية تفصل بينها وبين ما تريد الحصول عليه، وإذا كان ثمة حصنا في طريقها فليُحطم استجابة للعب الدور الذي حددته سياستها القومية في " قيادة العالم " .

ولا بأس ـ من وجة نظرها ـ أن يؤدي ذلك إلى تغيير المفاهيم العالمية، خاصة بعد أن أصبحت الأزمات الإقليمية والاضطرابات المحلية هى المحور الرئيس في السياسة العالمية عامة وأمريكا خاصة.

في ظل هذه المفاهيم يصبح الحديث عن التطور السلمي وإيجاد الحلول العادلة للمشاكل العالمية والإقليمية محض خيال، ولكن مع التسليم بوجود اختلافات قائمة بين الحضارات من حيث الدين، الثقافة، النظر للآخر، فليس معنى ذلك

بالضرورة أن ينجم عن هذه الاختلافات صراعات سياسية وحروب تسفك فيها دماء الأبرياء، وإذا حدث ذلك بالفعل مرة أخرى كما حصل في أفغانستان والعراق، فإنه ليعتبر حالة منفرة تُستوجب مناهضتها.

أما الحديث عن الأزمات الإقليمية فإن شعوب الدول النامية لم تصدرها لدول الغرب مع أنها من مخلفات جيوش الاستعمار، إذ بعد رحيله عنها لم يترك وراءه غير الفقر والتخلف وشعوب تعاني بسبب فقدان أجزاء من بلدانها وشعوب خطط لإنشطارها وضم أجزاء منها إلى مناطق نفوذ غير تابعة لها، ومن الطبيعي أن يولد ذلك صراعا بين أبناء الوطن الواحد، واللغة المشتركة، والدين الواحد، والثقافة الواحدة، وعندما تنطلق مشاعر الظلم من القمقم الذي ظلت حبيسة فيه طوال عدة قرون، قد يصيب الهلع قلوب من أسدلوا على ذاكرتهم ستارة تحجب عنهم جرائمهم القديمة في حق هذه الشعوب.

وأخيراً، تأتي الولايات المتحدة الأمريكية مدعية أنها تتطلع إلى قيام عالم على أسس التعاون والاعتماد المتبادل، ولا يعني التعاون في المجالات التي تهتم بها إلا أن يكون المتعاون معها إمّعة ..تابعاً ..ذيلاً، ومن عجب أنها تلقي بعد ذلك على شعوبنا السؤال في حسرة :كيف يمكن ذلك وهناك في بعض البلدان من يسعون إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل؟ ..يا لها من مسكينة ..إنها لا تريد دولا قوية في العالم كله غير إسرائيل ..بالطبع كلامها السابق لا ينسحب على إسرائيل، وإنما تقصد به بعض الدول الإسلامية.

عيناها باستمرار ـ بعد سقوط بغداد ـ على سوريا ..إيران ..ليبيا ..حزب الله في لبنان، وعلى كل بقعة في العالم يُرفع فيها ذكر الله ورايات الإسلام ..خوفا من قيم الإسلام وفضائله يدفعها لحشد مختلف قواها لمحاربته بوحشية لم تمارسها ضد الجمهوريات السوفيتية إبان الحكم الشيوعي ؛ لأن مسلمي تلك البلاد كانوا محرومين من ممارسة شعائر الدين:

"وتصنف العديد من الجهات الرسمية الأمريكية "الإسلام السياسي "باعتباره من التحديات المحتملة أمام الولايات المتحدة، خاصة بعد سقوط الأيدولوجية

الشيوعية، مع التصاعد الملحوظ في ظاهرة الإسلام السياسي في العديد الدول الإسلامية، لذلك تولى الولايات المتحدة اهتماماً واضحاً لهذه الظاهرة، وتعتبر انتشارها خطراً على المصالح الأمريكية والغربية، وقد ازدادت أهمية ذلك بعد استقلال الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، وتزايد النشاط الإيراني الأصولي، سواء في العالم العربي أو في هذه الجمهوريات."57".

يتضح من خلال هذا السياق مدى اهتمام أمريكا بالشأن الإسلامي، ومن منطلق أنه دين يجد له من يفتحون الصدور كل يوم ويدخلون فيه، ثم يزداد تخوفها عندما تدفع بالدين في حلبة الصراع السياسي والعسكري على اعتبار أنه عنصر أساسي للتميز بين الحضارات.

ومن مجموع التصنيفات التي تشكل رؤى الولايات المتحدة الأمريكية اعترافها بقول "هنتنغتون "حول أبناء الحضارات المختلفة الذين سيتواصلون فيما بينهم ويتدعمون ليتواجهوا على الحدود بين الحضارات جغرافيا، والإيمان بأن فكرة حضارة عالمية أو كونية هى نتاج متميز للحضارة الغربية .

لا تعليق ..سوى أن هذا الكلام مهشم الرؤوس، في تشظيه وعمائه من الطبيعي إلا يرى كيف كان التواصل والتلاقح وما حملته الحضارة الإسلامية من مشاعل أضاءت حياة الأوربيين، يكفي للدلالة أن قوة الأمبراطورية الأمريكية لم تنشأ من فراغ أو كنبت قائم بذاته، وإنما صنعتها قوة وعقول نوابغ علماء ومفكرون وكتاب من مختلف القارات بما في ذلك علماء ومفكري العالم الثالث ومن تفاخربهم في شتى المحافل العلمية والأدبية بعد أن ضمتهم إلى كيانها وأعطتهم الجنسية الأمريكية.

ونحن نؤكد أن هذا نوع من القرصنة والسلب المعترف به دوليا، ولا جديد في ذلك في هذا سوى أنه حلقة في سلسلة ألفتها أوطاننا، ومن لديه معلومة بسيطة عن خطط الغرب القديمة لسرقة الأوطان سوف يقارن بسهولة بين ما يحدث في حياتنا اليوم، وما حدث على وجه التحديد عام ١٩١٩ على يد كل من "وودر ويلسون "و"لويد جورج "و"كاليمنصو "حين جلسوا في باريس وراحوا يقررون

أى من الدول ستوجد وأى منها لا تستحق البقاء، واتفقوا على طريقة واحدة لتقسيم الشرق بينهم، وأنصرف الجميع بعد أن تناول كل منهم قطعة من الكعكة.

"وفي القرن التاسع عشر ساعدت فكرة "مسؤولية الرجل الأبيض "في تبرير توسيع الهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية، ومع نهاية القرن العشرين ساعدت فكرة حضارة عالمية في تبرير الهيمنة الثقافية الغربية على المجتمعات الأخرى وحاجة تلك المجتمعات إلى تقليد الممارسات والمؤسسات الغربية . إن العالمية أو الكونية Uni Versalism هى أيديولوجية الغرب في مواجهة الثقافات غير الغربية "58".

دائما ..هى تبحث عن المواجهة والصدام، ولكن ترى ما الذي ستفعله معنا هذه الكونية إذا كنا نحن الشرقيون لسنا في حاجة من نوع تلك الثقافة الغربية المتسمة بالقلق الوجودي وماديات العصر؟، كما وأننا لا نريد أن نقلد ممارستهم؛ لأنهم ينهضون على أقدام وشكوك المحبطين وبرجماتية "وليم جيمس "الداعي للخروج على كافة الأعراف والقوانين، فلكل فرد في مجتمعه قانونه الخاص "قانون ذاته ".

نحن لا نسعى لتقليدهم ؛ لأنهم في كتاباتهم ينبذون الدوافع العامة الإنسانية بحجة أنها ضعف وانكسار، ولن نقلدهم ؛ لأنهم يدعون أن من يتجاوز المصلحة العامة فيما تمليه عليه نفسه لا بد أن يتميز ببعض صفات الآلهة .

إن كمية الوعي الزائدة في حياة هؤلاء، وبدلا من أن تكون أداة وسعادة نجدها تتحول في حياتهم الى معاول لهدم الذات والروح، ويتمخض عن هذا الوعى الأسود انقلاب في سلوك الإنسان، فيصبح عدميا، عبثيا، تشاؤميا، وكلها أمراض يظن الغرب أنه يتيه علينا بها، ويتوهم أننا نتطلع إلى تقليده فيها، ثم يشرع في تصديرها إلينا في وعاء الأدب والفكر والفلسفة من خلال مترجمين محليين يروجون لثقافته.

إزاء هذه المشكلات التي ترعرعت في أحضان الإلحاد، فقد طرحت على معاصري عام ١٩١٨ شبلبنجر، وفاليري، تويبني،سوروكن سؤالا : أين نحن منها الثقافة

الحضارة؟ .. أهو زوال الغرب؟ ..هل من احتمال للإنقاذ؟:

"لقد استبدل تدريجيا سؤال أكثر قلقاً كذلك، أكثر عمقا" :أن الحضارات تولد، تنضج وتموت هل نحن على الأرض ببساطة لبناء، ثم هدم حضارات، هذه المصانع المؤقتة ؛ الأن متحولة مثل نسل من ديدان الخشب يبني مأواه الذي سوف يهدمه ثم يعيد بناءه في استمرار لنوع لا طائل من ورائه "59".

"نوع لا طائل من ورائه ".

قول يسف بالحياة ولا يعظم خالقها، يساق إلى القراء ليسلبهم الإيمان من خلال حروف موشاة ببرقشة الجاذبية والإغراء، وهو المعْنِيُ بالتصدير إلى المجتمعات العربية والتي يتوهم الغرب أنها تسعى على طريق"تقليد الممارسات والمؤسسات الغربية ".

وليس من قبيل الصدف أن تلتقي دعوتهم وتتوافق مع أفكار "ماركس " ؛ لأن الفساد الذي يغرق العالم لم يجدوا أمامه من سبيل سوى تدميره، وفي هذا المضمار حاولت الكنيسة القيام بدور أخلاقي لكنها فشلت، كما عجز العقلانيون عن القيام بهذه المهمة، إذ ثبت أن العقلانية وحدها لا تستطيع- مهما كانت أفكارها براقة- أن تصلح من شأن المجتمعات أو الأفراد .

وحتى لو اجتمع العقلانيون على صعيد واحد للخروج بمبادئ أخلاقية، فسوف يكون نتاج عملهم مجموعة من الكوارث والنكبات كما حدث عند الثورة الفرنسية وما تلاها من حكم ديكتاتوري بزعامة نابليون بونابرت.

وعلى المستوى الثقافي الوطني تعاني الثقافة بآلياتها السلعية والخدمية ،منذ سنوات- من فيروسات طفت على سطح الحياة العامة وجرفتها في مسار تعبئة القراء والمشاهدين بالقشور، ويلتقي هذا المستوى بمختلف الفيروسات الفكرية والأدبية الوافدة من أجل إفراغ وعائنا الثقافي وتجفيف تربة الإبداع في وطننا، وتصبح الثقافة بلا عقل ولا وجدان :

"ومعناها في هذا السياق في نظر الموقف الاجتماعي والثقافي والنقدي، هو الثقافة الهابطة التي تتملق أذواق الجماهير محدودة التعليم، وتعيد الأذواق نفسها،

أو التي تعمد إلى تسطيح الأفكار والمشاعر وإلى توحيد أو "تنميط "عناصر الجمال وإلى تحويل الترفيه إلى تغييب الوعي الإنساني والأخلاقي والاجتماعي/ السياسي في وقت واحد ."60"

ولا يتوقف دوران هـذه العجلة عند أداة فـكرية واحدة، بل أنهـا تربط الأسـاليب التعبيـرية في القصة والشعر والرواية والمـسرح والسينما والموسيقـا والغناء والفنون التشكيلية بحـلقة المركز العالمي الاقتصادي السيـاسي الاستراتيجي، وجـعلهـا هى السائدة أو الأنموذجية التي يجب أن يتبناها الجميع.

وأخشى ما أخشاه أن تنساق ثقافتنا بعقلية "جماهير الإعلام "خدمة لما عرف مؤخرا باسم "العولمة الثقافية ".

من مجمل ما تقدم يصبح الادعاء بأننا نعيش في حضارة عالمية واحدة محض كذب وافتراء، لا تزال هناك فجوات متسعة بين الأمم وبعضها وبين الشعوب ذاتها التي تتكلم بلغـة واحدة وترتبط بدين واحد الأمر الذي يؤكد أن هناك ثـقافة عالمية وثقافة محلية لـشعوب لا تزال ترزح تحت أعباء ما خلفه لها الاسـتعمار من فساد فكري، تضاف إلى هذه الأمراض مجموعة من الثوابت المتوازنة والبعيدة عن كلمة حضارة عالمية.

عدالة التجارة.. قبل حرية التجارة

شعار يعانق الإنسانية، رفعه المتظاهرون في مواجهة شعار : "حرية التجارة العالمية " إبان إنعقاد المؤتمر الأول لسدنة العولمة في مدينة "سياتل " في نوفمبر سنة ١٩٩٩م وكان للنجاحات التي حققها المتظاهرون أمام مركز التجارة الدولية في جنيف أبلغ الأثر في كشف الأهداف اللاعادلة للسياسات الكونية الجديدة الممسكة بخيوطها كلا من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

دارت هناك معارك ضارية على شبكة الإنترنت بمشاركة "جماعة حقوق المستهلك "و"جماعات الدفاع عن البيئة "و"جماعات حقوق الإنسان"، ومنظمات كثيرة غير حكومية.

انعقد المؤتمر تحت رئاسة "بيل كلنتون "الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية، وبمشاركة مائة وثلاثين دولة وعلق "فريد برجشتاين "مدير معهد الاقتصاديات الدولية على أعمال المؤتمر بقوله : " إن شل مؤتمر ستايل لا يمثل انحدار النفوذ الأمريكي بقدر ما يمثل التغيير الذي أصبحت من خلاله الدول النامية ثالث قوة تحدد سياسة منظمة التجارة العالمية جنبا الى جنب مع الولايات المتحدة وأوروبا واليابان." .

ما ينسحب على أوروبا واليابان في هذا القول لا يمكن أن نجيزه بالنسبة للدول النامية ومدى تأثيرها في ميزان توجهات منظمة التجارة العالمية إلا من حيث كونها سوقا استهلاكية ومناجم للطاقة وآبار نفطية .

أما "توم هايدن " أحد زعماء الطلبة عام ١٩٦٨م فكان واضحا في كلمته التي ألقاها أمام المتظاهرين في "سياتل "مساء الاثنين ٢٩ نوفمبر ١٩٩٩ : " كنا نواجه آنذاك قضية أو قضيتين، أما الآن فإنكم تتناولون كل شيء ، نعم، هذا هو مدى اتساع ذلك الذي يسمونه العولمة، في كلمة تمثل سياتل نقطة الانتقال من

مرحلة القبول الأعمى للعولمة والتبعية العملية لهيمنة القطب الواحد من ناحية ومن صحوة المجتمعات والشعوب والأمم والدول، وكذا الدوائر الثقافية والحضارية الكبرى ضد التنكر لهويتها ومصالحها ومستقبلها ".

لقد ظهرت بوادر هذه الصحوة عقب اجتماع "منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية "في باريس، وأسفر اجتماعها في خريف ١٩٩٨م عن وثيقة أطلقوا عليها "معاهدة دولية للتنمية متعددة الأطراف "وهى في الأساس تتجه لسلب أقوات الشعوب، كما تفرض على كل دولة توقع عليها أن تمنح الاحتكارات العالمية جميع الامتيازات، وتضمنت نصوص المعاهدة منح الشركات والاحتكارات حق رفع الدعاوي ضد الحكومات التي تتنصل من شروطها، ثم بادر الاحتكار العالمي بدعم أركانه بمجموعة من الشركات البالغ عددها مائتي شركة، تبين أن ٧٤ ٪ منها أمريكية، وتدخل في مجموعة هذه الاحتكارات الدولية قاعدة حلف الطلنطي ومؤسسة البنتاجون "وزارة الدفاع الأمريكية ".

وما يثير الانتباه أن الذين يساهمون في إفقار العالم وشقائه يتباكون على الفقراء ويشجبون تلك الحياة الفاسدة، وهم في حقيقة الأمر ينطوون على "الخوف من هؤلاء الذين يمثلون تهديداً للثراء وحياة الأثرياء ".

ولأجل من يصرعهم الفقر وينهش أرواحهم بنواجذه أكد رئيس البنك الدولي أن عدد هؤلاء يزيد على أكثر من ٣مليارات نسمة، ثم طالب من كبار المستثمرين أن يبادروا بوضع الخطوط التنموية لشعوب القارات الفقيرة.

ووقف رئيس الصندوق الدولي إلى جانب رفيقه رئيس البنك الدولي محذرا من الفقر وقال : إنه يخشى على عالمه من زحف الفقراء القادم، وأدعى أن قلبه لن يرتاح إلا بعد أن يستمع العالم إلى تلك الأصوات التي تهدد الاستقرار العالمي وتؤثر على الأمن الدولي.

عقب هاتين الصرختين فُتحت خزائن المستثمرين تحت مسمى تنمية موارد الشعوب الفقيرة، ولوحظ في تلك الفترة أن حجم الديون الخارجية تتضاعف كل عام ، بينما الشعوب ذات الأيدي العاملة الرخيصة تزداد بؤسا دون أن يطرأ على

بنيتها الاقتصادية ما ينعش حياة المواطنين، فاضطرت في السنوات الماضية أن ترفع أصواتها مطالبة بإسقاط جزء من ديونها التي بلغت ١,٦ترليون دولار سنة ١٩٩٣م، وفي الوقت الذي يحصل فيه مواطنو هذه الدول على ما يقيم أو دهم بالكاد، يستهلك شعب الولايات المتحدة الأمريكية وحده أكثر من نصف المواد الأولية في العالم كي تظل محافظة على وجاهتها الاجتماعية ورفاهية مواطنيها، مستغلة في ذلك الإنسان والطبيعة.

ولم تكد تمر ثلاث سنوات على المؤتمر الأول لسدنة العولمة في نوفمبر ١٩٩٩م حتى عقد اجتماع "جوهانسبرج "في بداية سبتمبر ٢٠٠٢ وكانت الأمم المتحدة هى التي دعت إليه، وقد اشترك فيه أكثر من مائة رئيس دولة ورئيس حكومة، ونحو ٦٥ ألف مشارك يمثلون وفودا حكومية ومنظمات دولية وأهلية.

كان على رأس جدول أعمال القمة مشاكل الفقر، ودارت حول هذا المحور مناقشات عديدة للحد منه، ثم ناقش الحضور ندرة المياه العذبة ومستقبل مصادر الطاقة، والحفاظ على التنوع الحيوي، وظاهرة تغير المناخ، وحق الشعوب الفقيرة في التنمية ومسؤولية الدول الغنية عن الإصلاح البيئى، ومعالجة ما أحدثه الإنسان من تدمير وتخريب وتدهور لحق بكوكب الأرض بحيث يصبح صالحا لحياة الأجيال المقبلة.

انعقدت قمة "جوهانسبرج "تحت مظلة رغبة الشعوب الخالصة في أن تحقق الدول التنمية البشرية، وبمفهوم واعٍ يرى أن نموذج التنمية المنشود هو الذي لا يقدر الحياة لمجرد أن الناس يمكنهم إنتاج سلع استهلاكية، ولا يقدر حياة شخص ما أكثر من تقديره لحياة شخص آخر أتيحت له وسائل الحياة في يسر.

لذلك اهتم المجتمعون ببذل أقصى طاقة لإيجاد صيغة تنموية تمكن جميع الأفراد من توسيع مجالات الازدهار وتوظيف مختلف القدرات بشكل يعطي مردوداً أفضل في شتى المجالات الاقتصادية والثقافية والسياسية .

كل ذلك كلام جميل وأجمل من ذلك ما تناقلته وكالات الأنباء العالمية، إلا أنه عندما يوضع في كفة لا نجده يحرك ميزان الوقت ولا ميزان العمل، فجميع

الخطط الطموحة تصبح بجناح غير قادر على التحليق إذا لم تكن هناك آلية تسهر على تطبيقها.

لقد ضمت القمة عدة محاور لو اتخذ قرار إلزامي بتنفيذها لنعمت البشرية في وافر من العدل والرخاء والسلام، لكن إسرائيل وأمريكا كانا هناك لوضع مختلف العراقيل في وجه كل ما فيه خير لصالح البشرية.

إسرائيل تتحرش بالوفد الفلسطيني ..تحاول أن تشوش على صوته حتى لا يسمعه العالم، ولكن المجتمعين حين أصغوا السمع للفلسطينيين باهتمام، لوحت إسرائيل بالانسحاب وهددت.

ووقفت أمريكا حجر عثرة في وجه كل من يحاول تنفيذ الاستراتيجيات المقترحة للسيطرة على التغيرات المناخية.

والفكرة الرئيسية في هذه الاستراتيجيات دارت من حولها المناقشات الهادفة إلى تثبيت تركيز ثاني أكسيد الكربون عند جزء في المليون حتى تنعم أبشرية بعالم صحي نظيف بعد ارتفاع معدلات النمو الاقتصادي والصناعي فيه، وأصبحا عدوان للطبيعة واخضرار الحياة.

مع أنه، لو خلصت نوايا الولايات المتحدة الأمريكية لاستطاع الإثنان : النمو الاقتصادي والمساحات الخضراء أن يكونا صديقين، لكن أمريكا حالت دون بقاء البيئة الطبيعية على اخضرارها، وحالت دون أن تنعم الأرض بمحيط بيئي يكفل للجميع الصحة والسلامة.

ولولا أنها تستعلي على البشرية بمنطق الجاهلية، ولو أنها تعرف أن مصادر الطبيعة ..الطاقة ..الرياح ..الشمس ..المياه، تمضي جميعها إلى غايتها بمشيئة الله لتوصلت كما توصل المسلم إلى أن الله قد خلق هذه القوى لتكون له صديقا متعاونا:

"وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ويتعرف إليها، ويتعاون معها، ويتجه معها إلى الله ربه وربها، واذا كانت هذه القوى تؤذيه لأنه لم يتدبرها، ولم يتعرف إليها، ولم يهتد إلى الناموس الذي يسيرها "61".

" إن قاموس الولايات المتحدة اللغوي والعلمي ممتلئ بتعابير عن "قهر الطبيعة وقهر الإنسان ".

ولكن ليس بيد الإنسان ولا إرادته، وعلى الرغم من ارتكابه من آثام وجرائم في حق الطبيعة إلا أن المحيطات ظلت تعمل بمثابة المكابح أو "الفرامل "لامتصاص الكربون من الجو ..إنها تؤجل وقوع الدمار الشامل، لكنها لن تظل بمفردها قادرة على الحيلولة دون وقوعه، طالما أن الصناعات الثقيلة ،في دول الشمال- تعمل بأقصى طاقتها فتلوث ملايين مداخنها الأجواء، بغازي ثانى أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت، وهما الغازان اللذان يتشاركان في خاصية تلوث الغلاف الجوي.

إن ثانى أكسيد الكربون ينبعث من حرق الوقود الأحفوري في الصناعة والمواصلات، ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية تنتج وحدها ٣٩ ٪ من كميات هذه الانبعاثات، ولقد رفضت أن توقع على معاهدة " كيوتو " للحد من هذا التلوث، كما بررت رفضها للقرار الذي وافق عليه الجميع في قمة "جوهانسبرج"، بأنها لو أخذت به فسوف تحرم شعبها من عائد مادي وتفوق صناعي.

بينما كانت للرأسمالية الألمانية واليابانية منهاج مختلف داخل أروقة تلك القمة، فهما يريان ضرورة أن تنفق الأموال لرفع كفاءة المنشآت مع الاهتمام بتحقيق أكبر قدر من الانسجام الاجتماعي والفاعلية الاقتصادية والمهنية.

أما الأمريكان فقد عزموا على المضي قُدُما دون أن يهتموا باتساع ثقب الأوزون وتغيير مناخ الكرة الأرضية من أجل النمو المادي والمهني على حساب حياة البشرية، اما المنهج الألماني/الياباني، فلم يحظ بأقل اهتمام ؛ لأنه- بنظرها - اتفاق مباشر من أجل مردود بعيد المدى وغير مضمون النتائج.

ومن المؤكد أنها نسيت مزاعمها حول الديمقراطية، التي جندت في خدمتها الجيوش لتحارب شعوبا وأمما من أجل العمل بها، بينما كانت هى الدولة الوحيدة التي لم تستجب لرأي القادة والرؤساء الذين اجتمعوا في قمة "جوهانسبرج "لكنها آثرت الانحدار وأفول نجمها في نزيف السقوط، منتعشة بعنفوان الموت، متشبثة ببناء

حضـارتها العدمـية وهى تكتب علـى شاهد قبرهـا سطورا من خط سيـر تطورها التقني معتبرة إياه التسلسل المركزي للتاريخ الإنساني!

ولم ولن تعرف ـ وأركـانها تتداعى ـ أن الحضـارة الإنسانية لا تقاس بالمـعايير المادية، بل هناك السلوك الأخلاقي، وهو من الأهمية بحيث لا يرتقي الإنسان ولا يتحضر إلا به.

المراجـع

١ - المرجـع :هويدي أمين : ثلاث نقاط ساخنـة في قوس الأزمات ،مقال- جريدة الأهرام ٢٠ أغسطس ٢٠٠٢ .

٢ - المرجع : مشكلة المصطلح ..الإنترنت .موقع د .المسيري.

٣ - المرجع مـن تقريـر لـ "فيلي برانـت المستشار الألماني الشـمال والجنوب: برنامج من أجل البقاء"

٤ ـ المـرجـع :فوكـو ياما فرانسـيس- نهايـة الإنسان ..عـواقب الـثـورة البيوتكنولوجيا- ترجمة د. أحمد مستجير- إصدار سطور.

٥ - المـرجـع : على العرب مـواجهة النظام العالمي الجـديد ، جريدة الأهرام ٦سبتمبر٢٠٠٢ .

٦- المـرجـع :لمزيد من التفـاصيل راجع وليام غاى كار : أحجـار على رقعة الشطرنج دار النفائس- بيروت ص٢٤ وما بعدها.

٧ - المرجع : د . زرنوقة صلاح سالم حول جدل الإصلاح ،جريدة الأهرام ٢٤ فبراير ٢٠٠٣ .

٨ - المرجع : الـدغيـدي أنيس تاريخ بـوش السري الأسـود ورجال البـيت الأبيض ، دار الكتاب العربي- ط أولى٢٠٠٤ ص١٩٣ .

٩ ـ المرجع :حوار مع د. جمعة نعمان رئيس حزب الوفد- جريدة الوفد ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٤ .

١٠ - المرجع :د .شلبي رؤوف الشيخ حسن البنا ومدرسته الإخوان المسلمون ـ دار الأنصار ص٢٠٢، ٢٠٣ .

١١- راجع مذكرات الدعوة الإسلامية والداعية ص ٢٤٨ .

١٢ - المرجـع :مقدمة هنتنغتون صموئيل صدام الحضارات وإعادة بناء النظام

العالمي ترجمة د .مالك أبو شهيوة و د .محمود محمد خلف- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ص ١٥ .

١٣ - المرجع :المصدر السابق ، ص٢٢٦ .

١٤ - المرجع السابق ، بتصرف- ص٢٣٣ ، ٢٣٤ .

١٥ - المرجع : د. عبد المجيد وحيد:الإرهاب وأمريكا والإسلام ..من يطفئ النار؟ مكتبة الأسرة ٢٠٠٤ ص١٤٢ .

١٦ - المرجع :المسألة اليهودية ، موقع الإنترنت د .المسيري.

١٧ - المصدر :د .دغيم محمود السيد - المادية التاريخية بين الوهم والواقع نقد كتاب المادية التاريخية والوعي القومي عند العرب ط . أولى دار الحداثة لبنان ص٢٩ .

١٨ - المصدر هانس بيتر مارتين وهارالد شومان ، فخ العولمة- ..الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية- سلسلة عالم الفكر- الكويت يناير ٩٨ ص ٩ .

١٩ - المصدر السابق :ص ١٠ .

٢٠ ـ المصدر حوار مع الوزير رشيد محمد رشيد جريدة الأهرام ٢٣ / ١٢/ ٢٠٠٤.

٢١ - المصدر البياتي صبري مصطفى ، سيناريو صدام الحضارات .دراسات عربية مايو ، يوليو ، أغسطس ١٩٩٧ .

٢٢ - المصدر : صفاء فتحي: عن الحملة والتنوير بالاستعمار- جريدة أخبار الأدب ١١مايو ١٩٩٧ .

٢٣ - المصدر: د . الصلابي على محمد محمد : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط-الناشر- مكتبة الإيمان المنصورة ، ط أولى- ص ٣٠٩ .

٢٤ - المصدر السابق ص ٣٢٠ .

٢٥ - المصدر : د. مورو محمد : صراع الحضارات والحرب العالمية الرابعة دار الروضة- ط أولى٢٠٠٤ ص ٤٣ .

٢٦ - المصدر د. مورو محمد .. انحطاط حضاري .. تعذيب في سجن أبو غريب- ط .أولى مكتبة جزيرة الورد ص ٨ .

٢٧ - المصدر :د .إسماعيل محمود- الخطاب الديني المعاصر بين التقليد والتجديد الناشر دار مصر المحروسة- ص ٢٠ .

٢٨ - المصدر:إدوارد جيبون- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو درة .ج١ دار الكاتب العربي.

٢٩ - المصدر السابق : ص٣٢ .

٣٠ - المصدر د. دغيم صدر سابق ص ٣١ ، ٣٢ .

٣١ - مصدر سابق د . إسماعيل محمود ص ١٤ ، ١٥.

٣٢ - المصدر : نقلا من موقع د.عبد الوهاب المسيري على الإنترنت.

٣٣ - المصدر : لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا ، إسرائيل من الشتات الى الاستعمار ، الناشر مكتبة الإيمان المنصورة - ص٦٦ وما بعدها.

٣٤ - المصدر : راجع موقع د .عبد المعطي المسيري على الإنترنت.

٣٥ـ المصدر : هويدي فهمي .عالم الاختراق الكبير- مقال جريدة الأهرام ٢٨ديسمبر ٢٠٠٤ .

٣٦ - المصدر Unitednations De Vlop،:World De Velop Ment Repoet Ment Program 1997

٣٧ - مصدر سابق : بيتر مارتين فانس ص ٣٩

٣٨ ـ المصدر : عبد السلام رضا اقتصاديات الجريمة ، هل يخضع السلوك الإجرامي لحساب التكلفة والعائد؟ ، دار الإسلام للطباعة والنشر٢٠٠٤ ص ٦ .

٣٩ - مصدر سابق : بيترمارتين فانس ص ٤٧ .

٤٠ - مصدر سابق :عبد المجيد وحيد ص٥٩ .

٤١ - مصدر سابق : قطب سيد ص ١٣ ، ١٤ .

٤٢ - المصدر : لمزيد من التفاصيل راجع : صابر طعيمة : الإسلام والثورة الاجتماعية.

٤٣ - راجع لمزيد من التفاصيل- النظام المالي الإسلامي للدكتور عبد اللطيف عوض.

٤٤ - المصدر :صالح فرحان- جدلية العلاقة بين الفكر العربي والتراث. رؤية نقدية دار الحداثة بيروت ص ٣٦، ٣٧ .

٤٥ - المصدر قطب سيد في ظلال القرآن- الأجزاء ١ـ ٤ الطبعة الشرعية الواحدة والثلاثون .دار الشروق ص١٦ .

٤٦ - المصدر : عيسى صلاح- مثقفون وعسكر- مكتبة مدبولي- ط اولى١٩٨٦ ص ٣٣٧ .

٤٧ - المصدر :تسوية اوضاع المستثمرين ..إعادة العمال للشركات المستثمرة- جريدة الأهرام ٤ ديسمير ٢٠٠٤ .

٤٨ - المصدر : السابق .

٤٩ - المصدر : السابق .

٥٠ - المصدر :جريدة الأهرام ٢٣ فبراير٢٠٠٥ الصفحة الأولى.

٥١ - المصدر : العملية أحمد مصطفى- الإصلاح بين التحديات الداخلية والخارجية . جريدة الأهرام٣ يناير٢٠٠٥ .

٥٢ - المصدر: هنتنغتون صموئيل .. صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي . ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة . ود . محمود محمد خلف- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ص١٢٣ .

٥٣ - المصدر هنتنغتون مصدر سابق ص٢٠ .

٥٤ - المصدر : بيتر مارتين فانس ، مصدر سابق ص١٥٥ .

٥٥ - المصدر : من خطاب الزعيم الليبي معمر القذافي مارس ١٩٩٤ .

٥٦ - المصدر الدغيدي أنيس . تاريخ بوش السري الأسود ورجال البيت الأبيض ، دار الكتاب العربي . ط أولى ٢٠٠٤ . ص٦٢ .

٥٧ - المصدر :لواء الركن حسن (سعيد فاضل) .التوازن الاستراتيجي الإقليمي في ظل الصراع على مصادر المياه نقلا عن تحديات العالم العربي في ظل

النظام العالمي الجديد ، مطبوعات مركز الدراسات العربي ، الأوربي ط ثانية، ص٤٢٤ .

٥٨ - المصدر :هنتغتون مصدر سابق ص ١٣ .

٥٩ ـ المصدر : المنهجية التاريخية : توجهات واقعية- لمزيد من التفاصيل راجع : من المعرفة التاريخية تأليف: هـ . مارو . ترجمة جمال بدران مراجعة د. زكريا إبراهيم- الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . ص ٢٠ وما بعدها.

٦٠ ـ المصدر : مصطلحات فكرية الصناعة الثقافية مقال- جريدة الأهرام ١٢/ ٣/ ١٩٩٩م.

٦١ - المصدر: قطب سيد : في ظلال القرآن ، الطبعة الشرعية الواحة والثلاثون ص٢٥ .